رياض نجيب الريّس

شخصيّات عربيّة من التاريخ

Bibliotheca Alexandrina
0019008

رياض نجيب الريّس

شخصيّات عربيّة

من التاريخ

RIAD EL-RAYYES
BOOKS
رياض الريّس للكتب والنشر
4, Sloane Street, London SW1X9LA

FACE TO FACE WITH HISTORY
A Dialogue with Arab Personalities Past

by

RIAD EL-RAYYES

First Published in Great Britain in 1987
Copyright © Riad El-Rayyes Books Ltd
4 Sloane Street, London SW1X 9LA

British Library Cataloguing in Publication Data

Face to face with history: a dialogue with
Arab Personalities past.
1. Arab countries——History——20th
century
I. El-Rayyes, Riad Nejib
909'.0974927 DS39
ISBN 1 - 869844 - 08 - 4

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publishers

Photosetting by: Riad El-Rayyes Books Ltd., London

محتويات الكتاب

مقدمة	٧
البحث عن غد عربي	٩
مدخل	٢٥
الخريطة السياسية	٤٣
الفصل الأول	٦٧
السعودية: الدين أساس الحكم	٨٣
الفصل الثاني	١٠٥
الأردن: تدهور الدين من تدهور السلطة	١٠٩
الفصل الثالث	١٤١
لبنان: الجزيرة الميحية في بحر الإسلام	١٥٣
الفصل الرابع	١٨٣
سورية: الوحدة العربية هدف نهائي	١٨٥
الفصل الخامس	٤٣
فلسطين: أسئلة من غير أجوبة	٤٦
الفصل السادس	٥٠
العراق: وحدة فيدرالية من المحيط الى الخليج	٥٤
الفصل السابع	٥٧
مصر: العروبة المكنة ثقافياً والصعبة سياسياً	٦١
الفصل الثامن	٦٤
اليمن: صورة من بعيد	٦٦

مقدمة
البحث عن غد عربي

انا واحد من مئات بل آلاف هواة جمع وقراءة الكتب القديمة. وقد وفرت لي الإقامة الطويلة في لندن، فرص زيارة معارض الكتب القديمة والنادرة التي تقام في طول بريطانيا وعرضها وعلى مدار السنة، بقدر ما وفرت لي فرص التعرف على عدد كبير من باعة الكتب القديمة المعنيين بالعالم العربي والشرق الأوسط والاسلام. وهكذا توثقت علاقاتي مع «الكتبجية» وإزدادت معرفتي بعلم الكتب «الانتيكا» شيئا فشيئاً وبكثير من التواضع.

قبل هواية الكتب القديمة، كانت هناك هواية التاريخ. وفي الهوايتين معا، يكمن الشغف في أحداث الماضي وإرتباطها بالحاضر وإشارتها الى المستقبل. ومن هنا كنت احرص دائماً على الاشارة بان ليس هناك ثمة راي سياسي معاصر غير مرتبط بخلفيات تاريخية، وان العودة الى الجذور في إستمراريتها اليومية، ودلالتها على فهم المعاصرة، يجب أن يسبقها فهم للتاريخ.

وكثيراً ما يجد الكاتب السياسي والصحافي في التاريخ حليفا له. وهذا ما حصل معي بالفعل عندما عثرت اثناء تجوالي في بداية الصيف الماضي لدى أحد باعة الكتب القديمة على كتاب لم أسمع به من قبل وعلى مؤلف لم اقرأ له شيئاً، وإن كان قد مر عليّ اسمه في احدى قراءاتي . فاستهواني عنوان الكتاب وصوره بقدر ما استهواني اسم مؤلفه شبه الأليف. ودفعت ثلاثة جنيهات ثمنا له وخرجت من دون أن افعل أكثر من تقليب صفحاته.

ونسيته، إلى أن حملته معي في رحلة قطار كنت اقوم بها، اثناء جولة محاضرات امتدت من جامعة ادنبرة شمالاً إلى جامعة إكستر جنوباً، قطعت فيها الجزيرة البريطانية طولاً مرة ونصف المرة. وليس هناك كالقطار يغري بالقراءة، بقدر ما يغري بالتامل واحلام النهار وبالكثير الكثير من إعادة تركيب الدنيا في الصورة المثالية التي نتمناها والتي طمحنا إليها في شبابنا. فالقطار الذي ينهب سهول ووديان الجزيرة البريطانية الخضراء من اقصى شمال اسكتلندا إلى اقصى جنوب إنكلترا، لا بد أن يذكر المسافر العربي بجمال بلاده وتنوعها الهائل وقدراتها المتناهية لو كان يجمعها سكة حديد تخترق سهول وجبال الوطن العربي من غير حدود ولا سدود.

مع احلام القطار فتحت الكتاب الذي بين يدي. وكان عنوانه «البحث عن غد» بقلم روم لانداو، صادر في لندن عام ١٩٣٧. وحمل غلافه الداخلي تحت

العنوان الرئيسي الكلمات الآتية: «الأشياء كما هي والأشياء كما ستكون فيما بعد». وكان الاهداء: «إلى أصدقائي في الشرق الادنى - عرب وغير غرب - أملا أن حبي لهم، الذي لا يقل عن رغبتي في الحقيقة، قد ينعكس على هذه الصفحات * » .

واستهواني الكتاب على مدى عشر ساعات من رحلة القطار، بقدر ما صعقني. لأنه كُتب منذ حوالي خمسين سنة عن العالم العربي وقضاياه واشخاصه، وما زال كل سطر فيه يوحي وكانه كُتب اليوم، فاذا تغيرت قضايا العالم العربي باشخاصها، فإنها لم تتغير إطلاقا بمعانيها ولا بطروحاتها وكأن نصف قرن من عمر هذه الأمة لم يغير فيها شيئا.

الكتاب عبارة عن رحلة قام بها المؤلف إلى العالم العربي بين عامي ١٩٣٦ و١٩٣٧، شملت كل من مصر والسعـوديـة وسورية ولبنان وفلسطين وشرق الاردن والعـراق، إلى جانب تركيا واليونان وبلغاريا ويوغوسلافيا. وقد جمع المؤلف هذه البلدان كلها تحت اسم «الشرق الادنى» قبل أن يصار الى استخدام مصطلح «الشرق الأوسط» بعد الحرب العالمية الثانية. وخلال تلك الرحلة قابل المؤلف زعماء هذه البلاد وشخصياتها البارزة طارحاً عليهم سؤالا واحداً يكاد يتكرر تقريباً مع كل واحد منهم.

وكان السؤال يدور حول ثلاثة محاور أساسية:

■ الاول: كيف ستؤثر مذاهب الغرب وأيديولوجياته الجديدة - كالنازية والفاشية والشيوعية - على مستقبل الشرق الادنى؟

■ الثاني: ما هو شعور العرب الحقيقي تجاه العروبة، والقومية العربية، والوحدة العربية، وما هو مدى إيمانهم بها، وإلى أي حد يتطلعون إلى تحقيقها؟

■ الثالث: ما هي علاقة الاسلام بالسياسة؟ وأين يلتقي ويتناقض الاسلام مع مفهوم القومية العربية وأفكار العروبة ومشاريع الوحدة العربية؟ وهل تستحوذ هذه الأفكار فعلاً على إهتمامات طبقات الشعب؟ وأين وكيف تصب وكيف تنهل من منابع الايديولوجيات الغربية الجديدة؟

وكانت هذه المحاور تتشعب من جديد للتساؤل عن ما هو الدين وما هي السياسة؟ أين يلتقيان وأين يفترقان؟ ما هي نتائج صراع المبادىء القومية مع المسلمات الدينية؟ وهل يستطيع أن يواجه التعليم الوطني السياسي التعليم الديني التقليدي؟ وينطلق الكاتب من هذا التشعب ليتساءل عن تأثير الفكر الغـربي على العقـل العربي وعن الوسائل الكفيلة لوقف التدهور الديني في الحياة العامة.

وكان المؤلف يلح في أسئلته للزعماء العرب الذين قابلهم على ضرورة محاولة اقامة إتصال وثيق بين الدين والعلم، وعلى ضرورة تحديث الحياة العربية على النمط الغربي دون إضعاف الروح الدينية. لذلك كان هناك في اسئلته الحاح

دائم يحمل باستمرار صيغة التساؤل: هل الاسلام متمم للعمل السياسي؟ وهل هناك من بد للفصل بين الاخلاق الدينية والسلوك السياسي؟ وهل من الممكن فعلا التعامل السياسي على أساس الدين؟

أسئلة. أسئلة. أسئلة، كلها تحمل طابع المعاصرة والحداثة والآنية، كان أي صحافي أو كاتب منا يسالها لأي زعيم أو مسؤول أو قائد عربي اليوم. لكن الجواب كان ياتيه أكثر قناعة وأكثر صراحة وأكثر إيمانا مما قد يطمح إليه أي سائل هذه الأيام من أي مسؤول عربي، مهما علا باعه. ويتضح من قراءة الكتاب ان الأسئلة ليست هي التي لم تتغير فقط، وان اختلفت الأجوبة عليها خلال الخمسين سنة الماضية، بل أن القضايا والهموم والطموحات العربية ما زالت تراوح مكانها منذ أكثر من نصف قرن.

وعند المقارنة بين الأمس واليوم، تجد كم أن هذا الكتاب مفجع من ناحية التخلف الفكري الذي أصاب العرب طوال العقود الخمس الماضية. ومفجع أكثر من ناحية ضيق الأفق السياسي الذي يجد العرب انفسهم في خضمه اليوم. ومفجع أكثر وأكثر من ناحية وقف التفكير في أي أمر قومي أو وطني لا يتعدى الحدود المصطنعة. إنما المذهل أكثر في الكتاب هو كم كان باب الاجتهاد السياسي والديني عريضا بالمقارنة بانغلاق وتعصب اليوم.

إن هذا الكتاب يدعو إلى وقفة تامل ومراجعة مع أنفسنا ومع التاريخ. التامل في أن ما ندعو إليه من مواقف قومية أو وحدوية، قد تبدو دونكيشوتية أو ساذجة في عصر التشرذم الاقليمي والتمزق الطائفي الذي نعيشه اليوم، هي المواقف نفسها التي كان يدعو إليها رجالات العرب على مختلف مشاربهم قبل نصف قرن. أما المراجعة فهي أن التاريخ وحدة لا تتجزأ، وانه لا يمكن تجاوز مخزون تاريخ وتراث هذه الأمة، القومي والوحدوي والعلماني، للتوصل إلى حالات تقسيمية أو انفصالية أو مذهبية. إنها السباحة المرهقة ضد التاريخ، مهما كان التيار مغريا.

والمؤلف لا يدعي في مقدمته للكتاب أية موضوعية، كما هي العادة بالنسبة لغيره من الكتّاب. بل يقول بانه كي يكون التاريخ موضوعيا، يجب أن يكون في الأساس إنطباعياً وشخصياً. ويتساءل عما إذا كان يجب أن يكتب اليوم كما كان يُكتب في العصور الغابرة. فالحقائق والوقائع وحدها ليست معصومة عن الخطأ، إذ لا بد من الاعتراف بقوة الحدس، التي لا يمكن تفسيرها علميا، عند كتابة التاريخ. كذلك يجب الاعتراف بالقوة الإلهية التي تسيّر التاريخ وتقرر مصيره في النهاية. والتاريخ لا يمكن فصله عن كاتبه ونوع إيمانه وتعدد تجاربه من طفولته حتى رجولته، مما لا بد وأن يكون له تاثير مباشر على طريقة بحثه وكيفية إستخراج وقائعه واحداثه.

والمؤلف روم لانداو قضى عمره في الاهتمام بالعرب والشؤون الاسلامية، منذ

أن قابل الملك عبد العزيز بن سعود خارج مكة عام ١٩٣٧، وباقي الزعماء العرب من الملك عبد الله، والحاج أمين الحسيني، واميل ادة، وفارس الخوري، وناجي السويدي، وطه حسين، ولطفي السيد، وغيرهم وغيرهم خلال رحلته الشهيرة الى العالم العربي التي أسفرت عن هذا الكتاب. وخلال الحرب العالمية الثانية حرر لانداو مع البروفسور آربري، أستاذ العربية في جامعة كامبردج، كتاب «الاسلام اليوم» وشغل بين عام ١٩٤١ ـ ١٩٤٤ منصب عضو في اللجنة العربية التابعة لقسم الاستخبارات السياسية في وزارة الخارجية البريطانية. وبعد الحرب صب اهتماماته على شمال افريقيا فكتب سلسلة كتب عن المغرب، منها: «دعوة الى المغرب» و«سلطان المغرب» و«جمال المغرب» وغيرها. وحاضر وكتب في الجامعات والمعاهد البريطانية والاوروبية والاميركية عن المغرب وشمال افريقيا كان أهمها ما كتبه عن المغرب في «الكتاب السنوي لأحداث العالم» الذي صدر في الخمسينات. وقضى بقية عمره في الكتابة والمحاضرة في الصحف والاذاعات والجامعات عن العالم العربي ورجالاته وقضاياه.

تبقى نقطة أساسية وهامة أود التأكيد عليها، وهي ان دوري في هذا الكتاب ـ عدا دور القارىء المعجب ـ هو دور المحرر الصحافي الذي ترجم وأعاد صياغة بعض الفصول وكتبها بشكل يؤهلها للنشر من دون ان اتدخل في مضمونها اطلاقاً، محاولاً الاحتفاظ بقدر الامكان بأسلوب المؤلف الشخصي وانطباعاته الذاتية. وبالتالي فان الآراء التي ترد في هذا الكتاب، هي بالتحديد آراء الكاتب نفسه، التي قد اتفق مع بعضها واختلف مع البعض الآخر. إنما الأهم من ذلك إنها آراء الزعماء العرب الذين قابلهم المؤلف، من دون تحريف أو تغيير.

ولعل نشر هذا الكتاب اليوم، قد يفتح باب الحوار بين القراء لطرح أجوبة جديدة على هذه الاسئلة القديمة. كما قد يوفر مناسبة للتعليق على أحداث ذلك الماضي المعاصر من قبل اشخاص كثيرين عاصروه أو ما زالوا أحياء بيننا قادرين أن يصوبوا الكثير ما سيجيء فيها، ويفتح الشهية أمام آخرين ليقولوا كلمتهم ويمشوا. إنها مناسبة للبحث عن غد عربي بين أكوام ذلك الماضي.

لكن قبل الدخول في متن الكتاب والغوص في محتوياته لا بد من رسم خريطة سياسية للعالم العربي قبل خمسين سنة، كما كان يراها مؤلف الكتاب من موقعه البريطاني ـ الاوروبي، والتي انطلق منها ليحدد مساره قبل ان يستقل أول باخرة ويبحر بها إلى شواطىء الشرق الأدنى.

رياض نجيب الريس
لندن ايار (مايو) ١٩٨٧

* ROM LANDAU, **SEARCH FOR TOMORROW**, NICHOLSON & WATSON, LONDON 1938

مدخل

الخريطة السياسية

كان العالم العربي باستمرار ـ وخصوصا منذ حملة نابليون على مصر ـ ميـدانـاً مفتوحاً للمعارك المتواصلة بين الدول الغربية ذات المصالح المختلفة. وكانت السيطرة الغربية تحمل بطبيعتها بذور الشقاق. وكانت هنـاك رغبـة من الدول الكبرى في التوسع الاقتصادي والحصول على ضمانات استراتيجية. وفي الوقت نفسه كانت رغبة السكان الوطنيين في الحصـول على الاستقلال. ولم تفلح الجهود الديبلوماسية الغربية أو المعـونات الاقتصادية مهما كان حجمها في كبح جماح تطلع الشعوب العربية إلى الاستقلال.

وعلى هذا الأساس حاولت الدول الكبرى وعلى مدى سنوات طويلة إدخال الشرق الأدنى إلى الساحة السياسية العالمية شرط أن يقوم بدور سلبي فقط. وإستخدمت الدول الكبرى المصالح المحلية كقطع شطرنج تحركها وفقاً لمشاعر الغيرة بين هذه الدول الكبرى نفسها. وكان سلوك الدول الكبرى «يشبه إلى حد كبير سلوك عصابات قطاع الطرق الذين يغيرون على مزارعين مجردين من السلاح».(١).

ولم تثر الاعتبارات الانسانية أو الاخلاقية إهتماما كبيراً من جانب الدول الكبرى. وكانت البرلمانات في لندن وباريس وسانت بطرسبرغ تردد شعـارات رنانة لدى مناقشة مشكلات دول الشرق الأدنى، ولكن هذه الشعارات كانت في معظم الأحيان لا تتعدى مجرد كلمات جوفاء. وكانت السيطرة الاقتصادية على تركيا ومصر وفارس خلال الأعوام الخمسين التي سبقت الحرب العالمية الأولى تعتبر مثالا نموذجيا للأسلوب الذي تطبق به أخلاقيات الامبراطوريات الغربية.

وعند نهاية الحرب العالمية الأولى، كانت السيطرة الغربية قد فرضت حكومات محلية فاسدة على دول تلك المنطقة. وكانت الامتيازات الغربية تتحكم في معظم المصالح الحيوية لدول الشرق الأدنى ومصادرها المعدنية وخطوط السكك الحديدية وسبل النقل المائي والتجارة. ومن بين الأساليب

التي لجأت اليها الحكومات الغربية، بإستمرار، أسلوب تقديم قروض ضخمة تعرف مقدماً أنها لن تسدد وذلك بهدف وضع مصادر الدخل المحليـة في مرحلة لاحقة تحت سيطرة الامتيازات الأجنبية. وفي معظم الاحيان كان هذا الاسلوب يؤدي الى تدمير اقتصاديات تلك الدول.

وقـدم الغرب دعمه للحكام الذين كانوا بعيدين تماما عن شعوبهم والذين كانوا مجرد أدوات في أيدي الدول الكبرى. وأدى التنافس الغربي الى جعـل الحكـام الفاسدين أكثر فساداً، وأدت الرشاوي المقدمة إلى هؤلاء المسؤولين إلى التضحية بالمصالح الوطنية. وإتضح مدى النفاق السيـاسي الغربي بصورة لم يسبق لها مثيل في المعاهدة ذات السمعة السيئـة التي وقعتهـا الدول الكبـرى وتـركيا في فيرساي يوم ١٠ آب (اغسطس) ١٩٢٠.[٢]. وكانت الدول الغربية قد قررت أن تتولى لجنة مالية فرنسية بريطانية إيطالية السيطرة على الحياة الاقتصادية في تركيا بأكملها تقريباً، والمصادقة على الميزانية حتى قبل إخطار البرلمان التركي بهـا، كما كانت تسيطر على الامتيازات في الأراضي التركية وتشرف على إدارة الجمارك. ولم تتم المصادقة على هذه المعاهدة قط.

وليس هذا هو المجـال المنـاسب للدخـول في تفـاصيـل الاتفاقات والمباحثات العديدة التي قامت بها الدول الحليفة بشأن مصير سكان الشرق الأدنى. ويكفي أن نذكر هنا الى الاتفاق بين بريطانيا وفرنسا في اذار (مارس) ١٩١٥ بشأن مستقبل القسطنطينية وفارس وشبه الجزيرة العربية. ومعاهدة لندن السرية في ٢٦ نيسان (ابريل) ١٩١٥ التي وعدت ايـطاليـا بموجبها بالحصول على بعض اجزاء الغنيمة المتوقعة. وهناك المفـاوضـات التي دارت في مكة المكرمة في خريف ١٩١٥ بين بريطانيا والشريف حسـين، شريف مكـة، بشـأن استقلال العرب في المستقبل، والخطاب الشهير الذي كتبه السير هنري ماكمهون الى الشريف.[٣] وكذلك الاتفـاق السري المعـروف «بـاتفـاق سايكس ـ بيكو» بين السير مارك سايكس وجورج بيكو، والذي أدى الى الغاء الكثير مما سبق أن وعدت به بريطانيا الشريف حسين قبل عدة أسابيع بأسلوب كان غامضا بصورة متعمدة. وهناك أيضا الوعد القاطع الذي قدمته بريطانيا وفرنسا للعرب يوم ٩ تشرين الثـاني (نـوفمبـر) ١٩١٨، والذي أعلنت فيـه الدولتان بوضوح كامل أن هدفهما هو «التحرير الكامل والنهائي للشعوب التي

تعرضت لقمع الأتراك لفترة طويلة، وتشكيل حكومات وادارات محلية تستمد سلطتها من مبادرة السكان المحليين واختيارهم الحر». ولكن لم يتم السماح لهذا «الاختيار الحر» بالتعبير عن نفسه في معظم الدول العربية الا بعد عشر سنوات أو أكثر من أصدار هذه الوعود.[٤] وكان المستشارون العسكريون والاقتصاديون والمستشارون الآخرون يعترضون طريق الاستقلال الكامل في سورية ولبنان والعراق وشرق الاردن وفلسطين.

وأدى حصول بعض الدول العربية على استقلالها في الثلاثينات من هذا القرن الى تكوين شكل جديد للعلاقة بين الشرق والغرب. حيث أخذ يتحدد الطابع النهائي لتلك العلاقة بالاسلوب الذي يحل به الشرق الأدنى مشكلاته الملحة. وأهم هذه المشكلات هي مشكلة وجوده التاريخي الجديد. وحتى مطلع الثلاثينات كان مصير وسياسة وحتى تشكيل حكومات منطقة الشرق الأدنى يتحدد في جنيف أو لندن أو باريس. ولكن بعد دخول العراق عصبة الامم المتحدة عام ١٩٣٢ والمعاهدة البريطانية ـ المصرية عام ١٩٣٦ والمعاهدات بين سورية ولبنان وفرنسا عام ١٩٣٦، بدأ الاستقلال العربي يخرج من طور الخيال ويدخل أرض الواقع. كما بدأت الدول العربية تقف على قدم المساواة في ساحة الدول الحديثة.

ولم يكن تشكيل الحكومات أو بناء الجيوش وتسيير القطارات والمدارس هي العوامل الرئيسية التي تحدد بلوغ أو عدم بلوغ الدول مرحلة النضوج. بل كان يتعين على دول الشرق أن تحقق ما هو أكثر من مجرد الكفاءة كي تستمر في البقاء، كما كان يتعين عليها أن تضع حياتها الوطنية بأكملها على أساس جديد. وكان السؤال:

هل يمكن للقومية العربية الجديدة التي كانت تجتاح الشرق بأكمله أن توفر هذا الأساس؟ وهي يمكن للاسلام أن يكون ذلك الأساس؟

● ● ●

منذ خمسين سنة كان الكثيرون من الكتاب الغربيين يعتقدون أن القلاقل التي تنتشر في حياة الغرب ما هي الا نتيجة مؤقتة للحرب العالمية الأولى. ولكن الثورة النفسية الجديدة التي شهدها العالم في النصف الأول من ذلك القرن أدت في الواقع الى هز أسس الوجود الحديث.

وكان الكثير من مظاهر الماضي في اوروبا قد اختفى في الثلاثينات من العصر الحالي. ومن هذه المظاهر قدسية المادة، وعدم التشكيك في الحقائق العلمية، والاحتكار الذي تفرضه الكنائس على الدين، وأيضا الكثير من المقاييس السابقة في الحياة الثقافية والفنية، حتى بدأت الكنائس رغما عن ارادتها تشكك في جدوى السبل التي اتبعتها.

أما في الشرق الأدنى فان الشواهد على الثورة الفرنسية الجديدة التي ظهرت بوادرها في ذلك الوقت كانت تبدو أكثر تعقيداً وأكثر وضوحا في آن واحد. وقد بيّن المفكر التركي ضياء غوك أبل (١٨٧٥ ـ ١٩٢٥) بوضوح كامل الاتجاهات الرئيسية الثلاثة التي كانت تؤثر على الشرق الأدنى. وهذه الاتجاهات هي:

● «الاتجاه الأول نحو النمط الاوروبي»، أو «قبول حضارة الغرب الحديث دون أي تحفظ».

● «الاتجاه الثاني نحو «القومية»، أو «تطوير القوى الحضارية الكامنة في كل أمة حتى يمكن أن تظهر حضارة الأمة من هذه القوى».

● «والاتجاه الثالث نحو الاصلاح الديني، أو «العودة الى روح الاسلام الحقيقي والاصلي، والتخلي عن كل البدع التي ظهرت بعد ذلك».

وكان الاتجاه الى النمط الاوروبي يحدث في الوقت الذي كانت تشهد فيه الحضارة الاوروبية مرحلة من الضعف الكبير. وقد تعاظم شعور الافراد في الغرب نفسه بأن الحضارة الغربية التي تحتقر بصورة واضحة القوى النفسية والروحية والمعنوية في الحياة ليست مؤهلة للتغلب على الفوضى السائدة في حينه. ومن الأمور التي كانت جديرة بالملاحظة أن الشرق الأدنى كان يتجه الى النمط الغربي بإرادته ودون أي تأثير خارجي ، ولم يكن هناك في الشرق الأدنى أي شخص كالمهاتما غاندي في الهند، يستطيع الوقوف محذراً مواطنيه من أخطار دخول الحضارة الاوروبية الى بلادهم.

وليس تقليد حضارة متداعية شيئا جديدا في التاريخ. ان الحضارة الهيلينية كانت تحتضر قبل الفي عام تقريبا وتفقد قواها سواء كقوة روحية أو كقوة سياسية. وبرغم ذلك استمرت هذه الحضارة في التأثير على منطقة البحر المتوسط بأكملها، حيث انبهر سكان هذه المنطقة بجمال منجزاتها السابقة.

ولم يكن من الضروري في اعتقاد الاوروبيين المستنيرين أن يؤدي الاتجاه الى الغرب الى تأثير سلبي على الروح الوطنية، شرط أن يتم هذا الاتجاه بجرعات صغيرة. ولكن عندما يتم هذا الاتجاه بسرعة كبيرة، فانه يمكن أن يصبح مصدراً لأخطار تهدد هذه البلاد في المستقبل. واذا كانت عمليـة بناء الحضارة الاوروبية قد استمرت في اوروبا نفسها عشرات السنين، فقد كان يتعين على الشرق الأدنى أن يستوعب هذه الحضارة بصورة متسرعة خلال سنوات معدودة.

وكان الكثير من تنامي الاحساس الوطني في الشرق الأدنى وما نتج عن هذا الاحساس من رغبة في الاستقلال السياسي الكامل يعود الى النفوذ الاوروبي بصورة مباشرة. ومع ذلك كانت اوروبا على مدى سنوات طويلة تقلل من هذه الرغبة باعتبار أنها مطالب متطرفة. ولكن عضو البرلمان الفـرنسي اريستيـد برياند أدرك طبيعة ما كان يجري ووصفه بصورة صحيحـة في البـرلـمان عام ١٩٢١ عنـدمـا كان يتحدث عن الاحداث الانقلابية في تركيا، اذ قال:

«إن القوميين الاتراك هم عبارة عن رجال اندفعوا الى القومية في غمرة من الحماس المتسم بالعنف. ونحن نصف مثل هذا الشعور في فرنسا بالوطنيـة عندما يكون الأمر متصلا بالشؤون الفرنسية. ولكن عندما يحـدث ذلك في دول أخرى نطلق عليه لقب التطرف، برغم ان القضية واحدة في الحالتين».

وكان من وجهة نظر هؤلاء الاوروبيين أن ما فعله العالم الغربي قبل مئـات السنـوات هو ما فعله الشرق الأدنى بالأمس وحتى اليوم. «ان خروج الشعـوب الاوروبية من العصور الوسطى وإنتقالها الى العصر الحـديث تم تحت راية القومية. وأصبحت الأمة أعلى صيغة سياسية وإجتمـاعية وإقتصادية للتنظيم. كما أصبحت القومية مسلكاً ثقافياً، وصارت تهدد المسار الذي ينتهجه الناس».[٥]

وعلى الرغم من ذلك لم تتعرض تيارات كثيرة في الحياة العربية عند مطلع هذا القرن لتغيرات جذرية بالصورة التي حدثت للدين. وكان ذلك واضحـاً في كافة الطموحات والتطلعات الوطنية. ففي وقت من الأوقات كانت آمـال الوحـدة العـربيـة تكـاد تكـون متطابقة مع آمال الوحدة الاسـلامية[٦]. وأسقط الزعماء العرب المسؤولون فكرة الوحدة الاسلامية

وتجاهلوها.

وكان أكثر ما يثير الاهتمام هو الاتجاه نحو العلمانية. ولم يكن من المستبعد «أن يتخذ القسم الأكبر من الاسلام خلال فترة قصيرة من الزمان شكلا علمانيا بصورة واضحة»[٧]. وكان الدين بصوره التقليدية موجود في مصر - بفضل وجود الأزهر هناك - أكثر مما هو موجود في سورية أو العراق أو فلسطين، وبكل تأكيد في تركيا العلمانية. ومع ذلك كانت تضمحل بصورة سريعة السلطة الفعالة لرجال الدين التقليديين حتى في مصر نفسها.

ولم يأت الابتعاد عن المؤسسات الدينية نتيجة لجهود متعمدة، بل يبدو أن هذا الابتعاد كان كامناً في رؤية الانسان الشرقي الجديدة وسلوكه الجديد تجاه الدين. وبدأ الانسان العربي يعتبر الموضوعات الشخصية والاخلاقية من ناحية، والموضوعات العملية من ناحية أخرى، أكثر أهمية من النواحي النظرية والشعائر الدينية.

●●●

إن المبدأ الوطني الوحيد الذي ولد عند مطلع القرن العشرين بين المذاهب العديدة الجديدة التي وفدت من اوروبا الى الشرق الأدنى كان مبدأ العروبة والقومية العربية والوحدة العربية. وهو أيضا المبدأ الوحيد - في رأي الاوروبيين - الذي يوحد صفوف قطاعات المجتمع كلها تقريبا والذي يمكن التكهن بشكله في المستقبل.

واذا نظرنا الى الانتشار الواسع لمبدأ القومية العربية فاننا لا بد أن نشعر بالدهشة عندما نعرف مدى حداثته. ان السيطرة التركية في الامبراطورية العثمانية التي استمرت سنوات طويلة أدت الى القضاء على مطامح العرب الوطنية كلها. وكان النظام التركي الذي يعتمد على اطلاق العنان للأهواء وعلى القيام بأعمال وحشية في أحيان متفرقة، كان يعطي العرب قدراً كافيا من الحرية المظهرية وشعوراً دائماً وكامناً بالخوف، يمنعهم من التركيز على أية قضايا باستثناء القضايا ذات الطابع الشخصي المحض. ومع ذلك أدت زيادة الاتصالات مع الغرب الى ظهور الوعي الوطني لدى العرب. وتشكلت في سورية والعراق جماعات بدأت تنشر افكاراً جديدة عن الوحدة العربية وإقامة اتحاد فديرالي عربي.

وفي العام ١٩٠٥ أعلنت لجنة وطنية عربية في بيان جاء سابقاً لاوانه إلى حد ما، ان العرب «استعادوا وعيهم بوحدتهم الوطنية والتاريخية والعرقية (...) ورغبتهم في الاتحاد داخل دولة مستقلة(...) وسوف تكون الدولة العربية ذات نظام ملكي دستوري ليبيرالي ويحكمها سلطان عربي.» وكان معظم زعماء اتجاه الوحدة العربية من الضباط العرب الشبان في الجيش التركي. وكان هؤلاء متأثرين بالأفكار الثورية لحزب «تركيا الفتاة»، ونظموا انفسهم في اتحاد سري للضباط العرب عرف باسم «العهد». وكان مقرهم في العراق وسورية، وهدفهم الأساسي هو القيام بثورة على الأتراك. وفي الوقت نفسه كان هؤلاء الضباط يحرصون على الا يلعب أي عدو خارجي لتركيا أي دور في كفاحهم من أجل الاستقلال. ولكن الحرب العالمية الأولى منعتهم من تنفيذ خططهم وجعلت ثورتهم تقوم على أساس آخر. ان ما كانوا يخشونه من تدخل الدول الغربية أصبح حقيقة واقعة، كما أن السوريين والشريف حسين في مكة (الذي أصبح ملكاً بعد ذلك) قرروا التعاون مع الدول الغربية. وكان الشريف حسين أول حاكم عربي مهم يفكر في الوحدة العربية. ولم يكن الشريف حسين الشخص المؤهل للنجاح في مثل هذا المشروع الكبير.

ولم يعد القادة العرب بعد ذلك قادرون على اللهو بفكرة العروبة والوحدة العربية، لأن هذه الفكرة كانت قد دخلت في العشرينات مجال السياسة الحقيقية. وظلت هذه الفكرة في اعتقاد معظم الاوروبيين بانها الشيء الوحيد الذي يمكن أن يقضي على الروح الفردية التي منعت العرب مرات عديدة من تحقيق الاستقلال الكامل وانشاء حضارتهم الخاصة بهم من جديد.

وكانت المعاهدة التي وقّعها الملك عبد العزيز بن سعود والامام يحيى إمام اليمن في الطائف عام ١٩٣٤ واحدة من ثمار هذه الروح الجديدة التي سادت المسرح السياسي العربي. ويتم وصف هذه المعاهدة في مقدمتها بأنها «معاهدة أخوة اسلامية وعربية لتشجيع وحدة الأمة العربية». ويعلن الطرفان أن امتهما «أمة واحدة» ويوافق كل منهما على مراعاة مصالح الآخر وكأنها «مصالحه الخاصة».

وكان اللقاء التاريخي عام ١٩٣٠ بين الملك عبد العزيز بن سعود والملك فيصل عاهل العراق على متن سفينة بريطانية في الخليج العربي

مثالا آخر على هذه الروح الجديدة. لأن الاثنين اجتمعا ووضعا أساس معاهدة صداقة بينهما بعد أن كانا عدوين في الماضي. وأصدر الملك عبد العزيز بعد عودته بياناً امتدح فيه هذا اللقاء ووصفه بأنه يخدم المثل العليا للعرب جميعا. وكان هذا اللقاء يعتبر مستحيلاً تماماً قبل عشرين عاماً أو حتى قبل عشر سنوات من حدوثه، بل ان صدور مثل هذا البيان كان أيضا شيئاً مستحيلاً.

وبقيت في الذهن العربي أسئلة ملحة تقلق تفكير العاملين في الحقل الوطني والقومي طوال حقبة العشرينات والثلاثينات من هذا القرن:

ما هي العوامل التي يمكن أن تعجل بقيام إتحاد فديرالي عربي الطابع؟ لماذا الحدود الحالية المصطنعة والبنية السياسية الرثة في العديد من الدول العربية؟ بل لماذا تم الفصل بحدود دولية بين فلسطين وشرق الأردن؟ ولماذا أصبح لبنان وسورية دولتين منفصلتين؟ ولماذا أصبح العراق مملكة وشرق الأردن مجرد إمارة؟ إن هذه الأمور كلها كانت تستعصي على فهم المعنيين بها مباشرة، ولا يمكن تفسيرها إلا بأنها تخدم المصالح السياسية والاقتصادية للدول الأوروبية الواقعة على مسافة آلاف الأميال. وكان الطموح قبل نصف قرن أن يتم التوصل لحل نهائي لهذه المشكلات كلها على أساس تعاون عربي شامل.

وكان كثيرون من الاوروبيين وقطاعات معينة من الرأي العام الوطني في الدول العربية - وخصوصا في مصر - يشيرون الى فكرة الوحدة العربية بإعتبارها حلماً طفولياً. ولكن أليس الحالمون هم الأشخاص الذين يعتقدون أنهم يمكن أن يغمضوا أعينهم ويخرجوا بشيء يثير إلهام الملايين؟ ولم يكن العرب على إستعداد بعد للوحدة العربية الشاملة. وقد تكون تجاربهم السياسية في رأي العديد من السياسيين الاوروبيين غير كافية على مدى سنوات عديدة مقبلة لتمكينهم من حكم أنفسهم بأي درجة من الكفاءة. وربما لم يتغلب العرب - في رأيهم - بعد على تراث المغالاة في الفردية والغيرة القبلية.

ومع ذلك فإن العامل الحاسم كان يتمثل في أن جميع الدول العربية تواجه من الناحية العملية واقعاً واحداً. وكان يتعين على هذه الدول أن توفق بين التقاليد الشرقية والبدع الغربية في معظم مجالات الحياة الوطنية. وليس هناك الكثير من الفضائل وأوجه القصور غير المشتركة بين

الدول العربية. إن هذه الدول كانت وما زالت تعاني من الازدواجية بين الجهود المثالية الفردية من ناحية، والجهل والخمول والفساد من ناحية أخرى.

وظل الاعتقاد السائد في الثلاثينات من هذا القرن أن سلوك الغرب ازاء الصحوة العربية الشاملة قد يتحدد مستقبلاً على أساس المصالح الأنانية أو الرغبة في التعاون مع قوى التطور الحقيقية. وإذا اختار الغرب سبيل التعاون مع قوى التطور فإنه يمكن أن يؤدي دوراً مفيداً بحق في سعي هذه الدول إلى الوحدة. ولم يكن العرب في ذلك الحين على درجة من القوة تمكنهم من التخلص من بقايا ما يعتبره معظمهم سيطرة أجنبية عليهم. ولكن لم يكن مستبعداً أن يختار العرب اللحظة التي تكون فيها بريطانيا وفرنسا مشغولتين في مكان آخر من العالم لتنفيذ ما يطمحون إليه. وكانت الدوائر الاستعمارية البريطانية والفرنسية تخشى بأن يسعى العرب إلى الحصول على دعم من دولة أخرى (في حينه المانيا النازية وإيطاليا الفاشية) تشعر بالغيرة من السيطرة البريطانية والفرنسية على الشرق الأدنى.

وكان كثيرون من الاوروبيين المتصلين بالشرق الأدنى يعتقدون أن الأمر سيستغرق مئة سنة على الأقل حتى يستوعب العرب الأساليب الغربية الضرورية ويصبحوا على استعداد للوحدة العربية. ولكن الانسان العربي يتسم بقدرته الواسعة على الاستيعاب، وبذلك يتعلم بسرعة. وعلاوة على ذلك يستخدم الانسان العربي الاساليب الغربية بدرجة كبيرة من النجاح رغم افتقاره الى المعرفة والخبرة، وهما عنصران لا غنى عنهما في الغرب.

وكان العالم قد بدأ منذ الحرب العالمية الأولى يغير من نظمه على أساس اتجاهات جديدة. وبدأت التحالفات المصطنعة التي أبرمت في الماضي تتهاوى وتحل محلها اتجاهات جديدة للولاء، بعضها يقوم على اساس التقاليد التاريخية القوية، وبعضها الآخر على أساس الضرورة الاقتصادية أو كليهما معا. وظل الشرق الأدنى معرضاً منذ نهاية الحرب العالمية الأولى لتأثير غربي مباشر. وكانت تتم ممارسة هذا النفوذ عن طريق السيطرة السياسية المكشوفة أو المستترة.

هوامش

(١)ـ «القوى الاكثر مسيحية» بقلم سيدني لو ـ مقال في «فورتنايتلي ريفيو» ـ آذار (مارس) ١٩١٢.

(٢)ـ عند توقيع هذه المعاهدة كتب ت. أ. لورانس قائلا «كان كل طرف يضع الشروط التي تخدم ما يستطيع الحصول عليه أو تصعب على الدول المجاورة الحصول على شيء ما (...) أن هذه الوثيقة عبارة عن إعلان واضح عن طبع المنتصرين ولن يصمد بند واحد من هذه الوثيقة لمدة ثلاث سنوات ولن تتم مراجعتها بل سيتم نسيانها». وقد تم نسيان المعاهدة بالفعل خلال أقل من ثلاث سنوات وحلت محلها الحقائق التي فرضها كمال اتاتورك بسيفه وعقله.

(٣)ـ تمت كتابة النص العربي الأصلي لهذا الخطاب يوم ٢٤ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩١٥ وهو لا يطابق الترجمة الانكليزية التي صدرت بعد ذلك عام ١٩٣٧ عن طريق اللجنة الملكية. وفي النص الأصلي لم يرد أي ذكر لاسم فلسطين. بل كانت هناك إشارة الى المناطق «الواقعة غربي دمشق وحمص وحماة وحلب»، على أساس أن يتم إستبعاد هذه المناطق من الدولة العربية التي ستقام في المستقبل.

(٤)ـ أعلن رامزي ماكدونالد رئيس وزراء بريطانيا عام ١٩٢٢، إن المعاملة البريطانية للعرب كانت: «ضرباً من ضروب الجنون». وكتب قائلاً: «لقد شجعنا على قيام ثورة عربية ضد تركيا عن طريق إصدار وعد بإنشاء مملكة عربية تضم فلسطين. وفي الوقت نفسه كنا نشجع اليهود على مساعدتنا عن طريق إصدار وعد لهم بأن فلسطين يجب أن توضع تحت تصرفهم (...) إنها قصة تنم عن مقاييس مزدوجة بصورة صارخة». (من كتاب «اشتراكي في فلسطين» ـ لندن ١٩٢٣).

(٥)ـ هانز كون ـ «الحضارة الغربية في الشرق الأدنى» ـ (أج. روتليدج اند صن ـ لندن ١٩٣٦).

(٦)ـ تم تجسيد آمال الوحدة الاسلامية بصورة واضحة قبل الحرب العالمية الأولى في حكم السلطان عبد الحميد في تركيا. وقد استخدم السلطان عبد الحميد دعوة الوحدة الاسلامية كطعم لاستغلال المشاعر الدينية المحمومة لدى المسلمين من أجل دعم موقعه كسلطان وكخليفة للمسلمين.

الفَصْل الأول

السّعُوديَّة:
الدّين أُساس الحكم

١ الملك عبد العزيز

أن التعامل لأول مرة مع المفهوم الشرقي للوقت يكون مؤلما في أغلب الأحيان بالنسبة لأولئك الذين لم يعتادوا عليه. وبرغم أنني قضيت فترة من حياتي بين العرب فإنني كدت أنسى تجاربي السابقة معهم، وتعين عليّ أن أتعلم درساً ثبت في النهاية أنه مفيد ومسلٍ في آن واحد.

أخطرني الوزير المفوض للمملكة العربية السعودية في القاهرة ذات يوم في نهاية شهر شباط (فبراير) ١٩٣٧ بأنه تلقى برقية من مكة المكرمة تقول إن الملك عبد العزيز بن سعود سيكون موجوداً في جدة في الأيام الأولى من شهر آذار (مارس). وأدهشتني هذه الأنباء، لأنه قيل لي قبل مغادرتي انكلترا أن الملك لن يتمكن من إستقبالي في جدة حتى منتصف شهر آذار (مارس) أو نهايته. لذلك وضعت خططي كلها على هذا الأساس. ولكن الوزير السعودي في القاهرة نصحني بمغادرة مصر دون تأخير وإلا فإنه لن يتسنى لي رؤية الملك على الاطلاق. ودفعني الحاجه الى تأجيل مواعيدي الكثيرة في القاهرة إلى تاريخ لاحق وركوب أول سفينة إلى جدة.

ووصلت إلى جدة في اليوم الثاني من شهر آذار (مارس)، وسألت عن الملك. الملك؟ إن جلالته ما زال موجوداً في مكة المكرمة. متى ينتظر وصوله إلى جدة؟ من المؤكد أنه لن يصل إلى هنا قبل منتصف آذار (مارس). قلت إن هذا مستحيل لأنه تم إخطار الوزير المفوض السعودي من مكة المكرمة مباشرة بأن جلالته سيكون في جدة في تاريخ مبكر من شهر آذار (مارس). عبر السعوديون عن أسفهم، ولكن الملك ليس موجوداً في جدة. هل هناك فندق أستطيع الاقامة فيه؟ بالطبع هناك فندق. هل هذا الفندق مفتوح طوال العام؟ كلا، إنه لا يفتح أبوابه إلا في موسم الحج، وربما يفتح أبوابه

بعد أسبوع واحد على الأقل، إنشاء الله.

ونصحني محدثي بالاتصال بنائب وزير الخارجية أو وكيل الوزارة الدائم فؤاد بك حمزة. أين هو؟ في مكة المكرمة. إن الحكومة وكل الشخصيات، وكل فرد موجود في مكة المكرمة. انه وقت الحج. وإتصلت هاتفيا بنائب وزير الخارجية الذي كان سورياً ومتخرجاً من الجامعة الاميركية في بيروت، وكانت لغته الانكليزية ممتازة.[١]

ورد نائب وزير الخارجية على استعلامي قائلا: «صاحب الجلالة؟ إن صاحب الجلالة لن يحضر الى جدة قبل الخامس عشر على أقل تقدير، وأنا متأكد من ذلك.»

ـ «ولكن طلب مني الحضور الى جدة لأن صاحب الجلالة سيكون موجوداً هنا خلال الأيام الأولى من آذار (مارس).»

وقال الصوت القادم من مكة المكرمة: «لا أعرف شيئا عن ذلك».

ـ «ماذا تنصحني بأن أفعل إذاً»؟

«سوف أبحث الأمر وسأتصل بك في وقت لاحق»، أجاب فؤاد بك.

ولسوء الحظ يبدو أننا لم نستطع التنسيق بين ساعتينا. وفي اليوم التالي قررت عدم الخروج من الفندق وإنتظرت هناك طوال الصباح وبعد الظهر. وفي النهاية بدا أن الشرق والغرب قد اتفقا قبل غروب الشمس. وجاءت المكالمة الهاتفية من مكة المكرمة.

قال نائب الوزير: «لقد بحثت الموضوع ورأيت صورة من البرقية. أعتقد أن المعلومات التي أعطيت لك كانت خاطئة. إننا لم نقصد اليوم الأول من آذار (مارس)، بل قلنا اليوم الأول من محرم الذي يوافق الرابع عشر من آذار (مارس).

هل كان الوزير المفوض السعودي في القاهرة يا ترى يعتبر الفرق بين الشهر الهجري والشهر الميلادي تافها الى درجة أنه يتحدث عن أحدهما بينما يقصد الآخر؟ أم أن الأمر يرجع الى أنه يعتبر أنه ليس من المهم إطلاقاً أن أقضي عدة أيام أو عدة أسابيع في جدة؟

بعد يومين من آخر مكالمة هاتفية مع مكة المكرمة، وصل فؤاد بك حمزة إلى جدة في طريقه إلى الخارج. وعلى الفور توجهت لزيارته في وزارة الخارجية. وكان لا يزال شاباً وشعره أشقر وجلده أبيض اللون، ولم يكن يبدو على الاطلاق بالصورة التي رسمتها في مخيلتي لنائب وزير خارجية

المملكة العربية السعودية.

قال نائب الوزير السعودي: «إن جلالته سينتظرك يوم الأحد المقبل خارج مكة المكرمة. وليس لدى جلالته كما تعلم، الوقت الكافي للحضور الى جدة، ولذلك سيحضر بالسيارة الى مسجد شميسي الصغير الواقع على مسافة عدة أميال من مكة المكرمة لكي يقابلك». «وغمغمت ببعض عبارات الشكر بينما استمر فؤاد حمزة قائلا: «أنت تدرك أن جلالته مشغول للغاية في الوقت الحالي باستقبال وتكريم العدد الكبير من الحجاج والأمراء والشخصيات الأجنبية. ولن يكون لدى جلالته وقت كاف بالصورة التي كان يحبها».

●●●

تقرر أن يصحبني إلى المكان المعين للقاء خارج مكة المكرمة الشيخ يوسف ياسين السكرتير الخاص للملك،[٢] الذي كان يقوم أيضاً بأعمال نائب وزير الخارجية في غياب فؤاد بك حمزة. وكان الطريق يمر بتضاريس صحراوية وعرة. كما كانت العواصف الرملية في بعض الأحيان تزيد من صعوبة الرحلة، ولذلك كان من الضروري أن نسافر في سيارتين.

وكانت هناك تلال متعرجة على جانبي ذلك الطريق غير المعبد، ولم يكن فصل الصيف قد حرم هذه التلال بعد من الأعشاب والشجيرات التي تعطيها منظراً جميلاً. وعندما مررنا بسهل تنتشر فيه بعض الأكواخ قال الشيخ يوسف ياسين: «هذه هي بحرة التي تفاوض فيها الملك عام ١٩٢٥ مع السير غيلبرت كلايتون حول المعاهدة مع بريطانيا».[٣]

وبين الحين والآخر كنا نمر ببعض البدو أو الحجاج المتجهين إلى مكة المكرمة. وكان كثيرون منهم يتجهون إلى مكة سيرا على الأقدام، والبعض على ظهور الجمال، ولكن أغلبهم يستعمل السيارات. ولم تكن السيارات تسير إلا في موسم الحج. (هناك سيارات أخرى تتجه إلى المدينة المنورة الواقعة على مسافة مائتي ميل شمالاً، كما أن هناك طائرة يومية من جدة إلى المدينة المنورة)

وفي إحدى مراحل الرحلة شاهدنا كيسا يسقط من سيارة مكتظة بالركاب. وتوقف السائق وهبط أحد الركاب لاستعادة هذا الكيس. وقال الشيخ يوسف ياسين معلقاً على ذلك: «حتى لو لم يلاحظوا سقوط الكيس

فلن يسرقه أي شخص. إن أي بدوي كان سيحمله مباشرة الى الشرطة. وقبل عدة أيام فقد حاج أجنبي غني كيساً كبيراً يحتوي على جنيهات ذهبية ولكنه أعيد إليه مرة ثانية في الصباح التالي ». (تستخدم العملات الذهبية والفضية في المملكة العربية السعودية على نطاق أكبر بكثير من العملات الورقية).

وتساءلت وأنا أعرف الاجابة مقدماً: «هذا يرجع الى الملك على ما أعتقد!»

ـ «نعم، الملك. ربما تعلم أن هذا الطريق كان غير آمن تماما في الماضي إلا إذا سافر المرء عليه في قافلة مع وجود حراسة عسكرية قوية. وحتى مع وجود هذه الحماية العسكرية كان الحجاج يتعرضون في بعض الأحيان للهجوم وللقتل. وفي هذه الأيام تستطيع السير هنا وحدك طوال الليل وأنت آمن تماماً كما لو كنت في قلب لندن.»

ولكي أعطي محدثي الفرصة للتحدث بالتفصيل عن إنجازات الملك، سألته: «كيف تمكن جلالته من تحقيق ذلك؟»

أجاب الشيخ يوسف ياسين وهو يتعمد التباطؤ في إخراج كلماته: «إن عقوبة السرقة الأولى هي قطع اليد اليمنى. وعقوبة السرقة الثانية هي قطع القدم اليسرى، وعقوبة السرقة الثالثة هي قطع اليد اليسرى، وعقوبة السرقة الرابعة قطع القدم اليمنى». وكانت هناك رنة انتصار خفيفة في صوت محدثي وهو ينهي كلامه.

ووجدت من الصعب على مخيلتي تصور نوع النشاط الذي يقوم به لص أطرافه كلها مقطوعة. ومع ذلك لم أستطع مقاومة توجيه السؤال التالي: «وماذا يحدث له إذا سرق مرة خامسة؟»

ـ «عقوبة الاعدام». وانتهى الحديث عن هذا الموضوع.

وتغيرت المعالم حول الطريق بعد فترة وأصبحت جبلية إلى حد ما. وبعد مسافة خمسين ميلا تقريبا إتسع الطريق بأكمله ووصلنا إلى واد فسيح به عدد من الأشجار وبئر للمياه ومسجد صغير على الناحية اليمنى. وكانت هذه هي شميسي. وإنحرفت السيارة إلى اليمين وإتجهت ببطء إلى المسجد الذي نصبت بجانبه خيام كبيرة. وعلى مسافة قريبة كانت هناك خيام أخرى، وفي المواجهة كان هناك صف من السيارات وعربات الشحن.

قال الشيخ يوسف ياسين مفسراً: «هذا هو المكان الذي سيستقبلك فيه جلالته».

ـ «ولكن ماذا بشأن كل هذه الخيام والسيارات والجنود والخدم؟»

وكان هناك عدد من الرجال يهرولون جيئة وذهاباً في المكان، وبعضهم يخرج أطقم الصيني من الصناديق ويحملون أدوات الطعام وينشرون الأبسطة داخل الخيام.

قال الشيخ يوسف ياسين ووجهه تبدو عليه السعادة لأن المخيم أثار دهشتي: «لقد جاءوا كلهم هذا الصباح من مكة المكرمة. وبالطبع لا تتوقع أن يستقبلك جلالته في أرض مكشوفة وهو جالس على قطعة من الحجر. وبما أن جلالته لا يستطيع أن يستضيفك في مكة المكرمة فإنه يحاول أن يجعلك تستمتع بضيافته إلى أقصى حد ممكن هنا خارج مكة المكرمة.» وكانت مكة المكرمة تختفي خلف التلال التي أقيم هذا المخيم الملكي بالقرب منها.

وكان الخدم يحملون صفائح المياه من البئر القريبة وينشرون هذه المياه على الأرض حول الخيام. وتوقفت سيارتنا واقترب منا عدد من الحراس المسلحين بالبنادق والمسدسات. وتوقف هؤلاء الحراس عندما ميزوا مرافقي. وتقدم رجل متقدم في السن هو ياور الملك لتحيتنا. وإصطحبني بعد ذلك الى الخيمة الأصغر حجما من الخيمتين الرئيسيتين. وكانت الأرض مغطاة بالأبسطة، كما كانت هناك بعض المقاعد. وقال لي: «ستنتظر وصول الملك في هذه الخيمة. أرجو أن تستريح.» وكانت الخيمة المجاورة أكبر بكثير، كما كانت أرضها وجدرانها مغطاة بالأبسطة. وكان هناك مقعد كبير له مساند ويشبه العرش موضوعاً على مسافة قريبة من مدخلها.

وفجأة هب بعض الجنود واقفين وهم يشيرون الى التلال، وقال الياور: «إن الملك يقترب من هنا». وبعد عدة دقائق مرت أمامنا ببطء سيارة لونها أخضر قاتم. وكانت تتبع هذه السيارة عشرون سيارة أخرى تقريبا يجلس في الاثنتين أو الثلاث الأولى منها أعضاء الحكومة وأعضاء الأسرة المالكة. وكانت السيارات الأخرى تحمل حراس الملك ومرافقيه. وقفز هؤلاء الى الخارج قبل أن تتوقف السيارات وأسرعوا الى الخيمة الملكية مثل سرب من الفراشات. وكان بعضهم يرتدي ثياباً طويلة زرقاء وبنية

اللون. بينما كان البعض الآخر يرتدي ثياباً حمراء قانية. وكانوا يحملون بنادق بعضها موشى بالعاج واللؤلؤ والفضة، ومن الواضح أن هذه البنادق كانت أثمن ما يمتلكه أصحابها.

وخلال عدة ثوان شكل هؤلاء الرجال حلقة تنبض بالحياة حول الخيمة الملكية. وكانوا يتحركون دون ضجة بأقدامهم الحافية. ولم ينبس أي منهم بكلمة واحدة، ومع ذلك كانت وجوههم السمراء تنم عن التوتر الذي يصاحب الترقب.

وبعد خمس دقائق تقريبا من وصول الركب الملكي جاء الشيخ يوسف ياسين ـ الذي كان قد خرج لتحية الملك ـ قائلا: «إن جلالته مستعد لاستقبالك». وهكذا جاءت اللحظة التي كنت أنتظرها بلهفة على مدى أسابيع طويلة. وعند هذه اللحظة أحسست بشعور قوي يشير إلى أنني لم أكن أستحقها. إن كرم الملك في الحضور خصيصاً من مكة المكرمة، والجمال غير المتوقع للمنظر بأكمله جعلاني أشعر بعبء يثقل على ضميري. إن أصعب تشريف هو ذلك التشريف الذي لا يستحقه الانسان.

●●●

كان الملك جالساً على مقعده الذي يشبه العرش. وكان المخيم بأكمله ساكناً الى درجة إنني كنت أسمع صوت تنفس الحراس المتناثرين أمام الخيمة وهم جالسون القرفصاء.

نهض الملك من مقعده وإقترب مني وصافحني وهو ينظر اليّ من أعلى بقامته المديدة. وكانت هناك إبتسامة خلابة تزيد وجهه البدوي الأسمر جمالاً. وكان يبدو تحت سطح الخيمة المنخفض أطول من قامته التي بلغ طولها ستة أقدام وخمس بوصات. ومع ذلك كانت يداه صغيرتان ودقيقتان وكان هناك شيء ينم عن التواضع فيهما. وكان الملك يرتدي عباءته البدوية المعتادة ذات اللون البني وعلى رأسه كوفية قطنية تتخللها مربعات حمراء اللون. وكان الملك حافي القدمين لأن خفيه كانا خارج الخيمة. وفي مؤخرة الخيمة كان هناك صف من الرجال يجلسون على مقاعد أوروبية ويرتدون جوارب وأحذية. وبرغم أن ملابس الملك كانت بسيطة وقدميه كانتا حافيتين فإنه كان يجسد كل معالم الملك. إن الصفات الملكية لم تكن منحصرة في هيئته وحدها، كما لم تكن قاصرة على

أسلوبه الرقيق بصورة لم أكن أتوقعها. إن صفات الملك كانت حاضرة كعمود مشع داخل الخيمة ولم تكن تتطلب أي شرح أو تفسير.

ودعـاني الملك أن أجلس على المقعـد القريب منه. وإلى جواره كان مترجمه الرسمي جاهزاً بدفتر وقلم في يده.

وبعد أن نطقت بكلمات الشكر الأولى، رفع الملك يده في حركة خفيفة فيهـا إشارة أكثر منها أمر. ولدى هذه الاشارة بدأ الجنود المنتشرون خارج الخيمة ينصرفون بسرعة وصمت. وإختفى هؤلاء الجنود خلال عدة ثوان بخفة بالغة دون أن ينهضوا على أقدامهم ودون أن يبعدوا نظرهم عن الملك. وجـاء خادم بالقهـوة وصبّهـا في فناجين صغيرة. واستمرت المجاملات الاجتماعية بيننا لفترة من الوقت. وبدلاً من أن يتحدث الملك إلى المترجم كان يوجه الحديث اليّ مباشرة. وكانت هناك إبتسامة رقيقة تشع من وجهه المجعد.

□ وسألته: «هل تجدون جلالتكم أن من الممكن الإستمرار بإجراء معاملاتكم السياسية على أساس معتنقاتكم الدينية»؟

■ «نعم. إنني لا أعتقـد أن بإمكـان المرء أن يحكم دولة من دون أساس ديني. لقد التزمت بذلك طيلة حياتي. وهذا ما أرجوه على الأقل ـ وسوف أبذل جهدي للاستمرار في هذا الالتزام مستقبلاً».

□ «ولكن أليست هناك حالات كثيرة لا يمكن فيها التوفيق بين الاسلام والسياسة التي تقتضيها الظروف المتغيرة في زماننا الحاضر؟»

■ «في كثير من الأحيان توجد لدى الأجانب فكرة خاطئة عن الاسلام. إن الاسلام ربما كان أكثر الأديان عملية. إن الاسلام يسمح لك بأن تدخل مبتكرات مثل السيارات أو الراديو.» (وهنا رفع الملك صوته، وتكوّن لدي إنـطبـاع بأنه لم يكن يتكلم إليّ وحدي بل أيضا إلى الذين كانوا يجلسون في مؤخرة الخيمة. ولم أستطع تبين شخصية اولئك الجالسين، وربمـا كانوا من أبناء الملك أو الوزراء أو علماء الدين، ولكن كان من الواضـح أنـه يستغـل المنـاسبة للحديث إليهم بصورة غير مباشرة.) وإستطرد الملك قائلا: «إن الاسلام يعترف بكل شيء يؤدي إلى تحسين ظروف الحياة طالما أن هذه التحسينات لا تؤدي إلى القضاء على التعاليم الأساسية للرسول (صلعم). إن الاسلام يؤيد، مثل هذه المبتكرات، لأن الاسـلام يعمـل على تحسين حياتنا الجسدية والروحية في آن واحد».

(إستخدم الملك هنا كلمة «دينية» وليس كلمة «روحية»، ولكنني تعلمت بالتجربة المعنى المقصود).

□ «كيف تقومون جلالتكم بتحديث الحياة العربية على النمط الغربي دون إضعاف الروح الدينية في البلاد؟»

■ «إننا لا نقبل من الغرب أي شيء غير المنافع المادية لحضارته. لا تنس أن الشرق لا يؤمن بالنواحي الروحية في الحضارة الغربية. والشرق في الواقع لا يؤمن بأن هذه الحضارة تجسد أي قيم روحية على الاطلاق. وهكذا فاننا نكتفي بقبول تلك الأشياء الضرورية لتحسين حياتنا الخارجية. ويجب علينا بالطبع التزام الحرص من أجل حماية ثقافتنا كي لا تتأثر بالنفوذ الغربي. إن قبول السينما على سبيل المثال لا يعني قبول تلك الأفلام الضارة التي ينتجها الغرب. وسيتعين علينا الاقتصار على الأفلام التعليمية والأفلام التي تدعو حقيقة إلى القيم الأخلاقية.»

□ «ما هي الوسائل التي تنوون إستخدامها في الحفاظ على الروح الدينية للجيل الصاعد في المملكة العربية السعودية؟»

■ «عن طريق التعليم. إن ثقافتنا ومعرفتنا تقومان على أساس الاسلام. وعندما نقدم المعرفة للناس فإننا نملأهم أيضا بروح الدين».

□ «هل ينطبق ذلك أيضا على أبناء جلالتكم؟»

■ «بالطبع. والى جانب التعليم الصحيح يجب أن يتعلموا أيضا عن طريق المثل الصالح. لقد رأى أبنائي منذ بداية طفولتهم مدى أهمية الدين في حياة والدهم. ومن الطبيعي في هذه الحالة أن تصبح قوة الدين متأصلة في نفوسهم أيضا».

□ «هل تجدون أن الاسلام متمم للعمل السياسي، وإنه ليست هناك ضرورة للفصل بين الدين والسياسة وبين الأخلاق والسلوك السياسي؟»

■ «إن السياسة الصحيحة يجب أن تقوم على أساس الدين، وإلا فإن هذه السياسة ليست صائبة. ولا يمكنك الفصل بين السلوك السياسي والسلوك الأخلاقي. إنني لا أعتقد أن هناك ضرورة للفصل بينهما على الاطلاق، كما أنني أر مطلقا كيف يمكن فصلهم. إن الاسلام قوة كبيرة للغاية في حياتنا وفي سياستنا».

□ «وماذا بشأن التجارب التاريخية السابقة، ألم يكن هناك حكام مسلمون كثيرون يدعون أن مقاييسهم تقوم على أساس القرآن الكريم

ولكنهم كانوا يتصرفون بصورة غير دينية وغير أخلاقية؟».

■ «يجب عليك ألا تنسى أن الاسلام أسيء إستخدامه على مدى مئات السنوات، وأضيفت إليه بدع ليست له علاقة بها على الاطلاق، أو بعيدة عن التعاليم الأصلية للرسول محمد (صلعم). إن كثيرين من الحكام المسلمين أدخلوا تفسيرات تتفق مع أهدافهم السياسية وبذلك تؤدي الى تبرير أفعالهم السيئة. وهكذا تدهور الاسلام. وكل ما فعلته هو أنني عدت إلى التعاليم الأصلية كما وردت في القرآن الكريم وفي سنة الرسول (صلعم). ان القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة هما الأساس الذي نقيم عليه حياتنا في المملكة العربية السعودية. إن العقيدة نفسها لا يمكن أن تكون لها قوة كبيرة ـ مهما بدت صائبة ـ إذا لم يمارسها الداعي إليها في حياته اليومية. والشيء الذي أحاول إتباعه في حياتي هو مثال حياة الرسول (صلعم) التي أتبع فيها تعاليم القرآن الكريم».

□ «هل تعتبرون جلالتكم أن مهمة المملكة العربية السعودية هي أن تكون جسراً بين روحية الشرق ومادية الغرب؟ وإذا كان الأمر كذلك ما هي الوسائل التي يمكن إستخدامها في تحقيق هذه الغاية؟»

■ «لدى الدول الاسلامية كلها مهمة من هذا القبيل. ويعتمد النجاح في تنفيذ هذه المهمة على مدى التعاون مع الغرب، لأننا لا نستطيع تنفيذها إلا بفتح أعيننا على حقيقة الاسلام وجعلكم تدركون المزيد بشأن أنفسنا وبلادنا. ومن ناحية أخرى يجب علينا أن نتعلم المزيد عنكم وعن أسلوب حياتكم. إن الأمر يعتمد على التفاهم المشترك. ولدينا في الوقت الحاضر الكثير من الأفكار الخاطئة عن الغرب، كما أن لديكم الكثير من الافكار الخاطئة عنا وعن الاسلام، وبالمعرفة المتبادلة وحدها يمكن للعالم الاسلامي أن يقيم الجسر المطلوب للتعاون والتفاهم».

ولم أكن أنوي أن أوجه إلى الملك اسئلة لها إتصال مباشر بالموضوعات السياسية، ولكنه كان يشبع فضولي بمزيج من السماحة والصبر. ولذلك وجدت في نفسي الشجاعة لكي أسأله عن القضية التي تشغل بال العالم الغربي وهو ينظر في مستقبل الشرق الأدنى، ألا وهي قضية العروبة والقومية العربية. وسألت جلالته عن موقفه من هذه المسألة.

■ رد الملك قائلا: «إن العروبة أمر أساسي. وربما تكون الصورة المرغوبة للقومية العربية مشابهة لما هو سائد في الولايات المتحدة

الاميركية. في داخل هذا الاتحاد الفيدرالي سوف تحتفظ كل دولة عربية بحاكمها الخاص وصورتها الخاصة في الحكم والادارة. ومع ذلك يجب أن يكون هناك جهاز مركزي ينسق بين الجهود الفردية للدول المختلفة. وبهذا الطريق وحده ستحصل هذه الدول على القوة التي تفتقرها. وليست هناك أهمية كبيرة للشكل الخارجي لهذا الاتحاد. كما انه ليس المهم من سيكون رئيسه أو أين ستكون سلطته المركزية، في بغداد أو في فلسطين أو في أي مكان آخر. الشيء المهم هو أن العروبة يجب أن تصبح واقعا. إن الذين يعتبرونها مجرد خيال مخطئون وسوف تتحقق عاجلا أو آجلاً إنشاء الله.»

ومرة أخرى توقف الملك عن الحديث ورفع يده، وهنا جاء خادم بالشاي في أكواب سميكة وصغيرة. وإحتسى الملك الشاي خلال عدة ثوان وأشار الى الخادم بالانصراف. وبعد ذلك استدار اليّ وطلب مني الاستمرار في الاسئلة.

□ «إذا واجهتكم مشكلة تتطلب الاختيار بين التزامكم بمبادئكم الدينية وبين القيام بعمل يمكن أن يؤدي الى نجاح سياسي أو إلى تحقيق الازدهار لرعاياكم ولكنه لا يتفق مع القرآن الكريم، ما هو الطريق الذي ستختارونه في هذه الحالة؟»

■ «سأختار بالطبع الطريق الذي يتفق مع عقيدتنا. لقد واجهت اكثر من مرة معضلات من هذا النوع. ومع ذلك حاولت ان أعمل دائما وفقا لتعاليم الرسول (صلعم) حتى لو كان ذلك يعني خسارة سياسية في ذلك الوقت».

□ «حتى إذا عانى شعبكم من مثل هذا العمل؟»

■ «نعم. حتى في هذه الحالة. لقد وجدت أن الطريق الديني يؤدي على المدى الطويل الى النجاح السياسي بإستمرار. ولا تنس مرة أخرى إنني لا أقوم بأعمالي على أساس أقوال الرسول وحدها ولكن أيضا على أساس ما فعله في حياته أيضا».

ومرة أخرى رفع الملك صوته وكأنه يخاطب الجالسين في مؤخرة الخيمة، وإستطرد قائلا: «لا شك أن حياة الرسول (صلعم) هي المصدر الأكبر لالهامي. وإذا تصرفت وفقا لمثل هذا المثال فلا بد أن تنجح في النهاية. وإذا كنت أحاول أن أكون عادلا وغير منحاز كحاكم فانني أفعل

ذلك لأن الرسول (صلعم) كان عادلاً وغير منحاز».

وسألني وقد عادت إلى وجهه الابتسامة التي كانت تضيئه عند بداية الحديث: «إلى أين ستذهب من هنا؟» وعندما أخبرته بالزعماء الآخرين الذين آمل في مقابلتهم في الشرق ثم في أوروبا بعد ذلك، قال لي: «إنني متأكد أنك ستجد في هؤلاء الرجال كلهم قناعات أخلاقية عميقة والتزاماً بدينهم مشابهاً للالتزام الذي يحكم أعمالنا في هذه الدولة».

وأدهشتني هذه الكلمات التي نطق بها الملك الى حد ما، وخصوصا لأنني ذكرت دولة تسود فيها نظريات معينة جديدة تحل محل الايمان بالله. ومع ذلك كان الملك جاداً وكانت نبرة الاقتناع المتعاطف في صوته تشير إلى أن فلسفته الواضحة لا تسمح بوجود أي معتقدات سوى المعتقدات التي ذكرها للتو. ومن وجهة نظري ربما كانت سياسته تعكس التعقيد الذي يرتبط بالشرق، ولكن لم يكن هناك أي تعقيد في إيمانه بالله تعالى.

لم يبد الملك أي بادرة تشير إلى رغبته في إنهاء الحديث برغم أن موعد صلاة المغرب كان يقترب. ولذلك إستجمعت شجاعتي وإتخذت الخطوة الأولى وقلت له إن فضولي لا بد أن يكون قد أثقل على صبره. ورد الملك بثناء لطيف على كلماتي، ولكنه نهض في الوقت نفسه واقفاً على قدميه ببطء.

وقال الملك مشيراً الى واحد من الشبان الذين كانوا يجلسون صامتين في الناحية الأخرى من الخيمة طوال مناقشتنا: «هذا هو إبني فيصل». وتقدم الى الأمام الأمير فيصل نائب الملك في الحجاز، وكان رجلاً نحيفاً في بداية الثلاثينات من عمره وملامحه دقيقة الى حد ما. وعندما تصافحنا قال بالانكليزية: «كيف حالك؟» وقال الملك وهو يضع يده على كتف شاب آخر وسيم بصورة لافتة للأنظار كان يقف صامتاً بجانب الأمير فيصل: «وهذا هو إبني الأصغر منصور». قال الأمير منصور بالانكليزية: «كيف حالك؟». وتحركنا جميعا باتجاه الأرض المكشوفة أمام الخيمة.

●●●

وجاءني الشيخ يوسف ياسين قائلا: «إن الملك سيتناول عشاءه بعد وقت قصير من أداء الصلاة. وأعتقد أنك جائع أيضاً الآن. إن الملك طلب

إعداد بعض المرطبات لك» وقادني الشيخ يوسف ياسين إلى خيمة أصغر في أحد الجوانب.

وكانت هناك في وسط هذه الخيمة منضدة مغطاة بقماش أبيض وأدوات مائدة من الصيني والفضة وصحون كبيرة مليئة بفواكه جميلة مرتبة على شكل الزهور. وكانت هذه المائدة تشير إلى وجبة حقيقية وليس مجرد «بعض المرطبات». وكان هناك ستة أو سبعة من الخدم يقفون حول هذه المائدة. ولا أدري حتى الآن أين تم إعداد هذا الطعام، لأنه لم يكن في مقدورهم إحضار كل شيء من مكة المكرمة في أوان عازلة للحرارة، ومع ذلك كان العشاء يتألف من تسعة أصناف منها الحساء والسمك والدجاج والبط والهليون والباذنجان وحلوى مختلفة. وكان الطعام من النوع الذي يقدم في مناسبة كبيرة في مطعم أوروبي من الدرجة الأولى.

وقال الشيخ يوسف ياسين: «ما زال لدى الملك بعض الارتباطات المهمة في مكة المكرمة وسوف ينتهي من عشائه خلال أقل من عشر دقائق. ولولا أن وقته ضيق بهذه الصورة فانه كان سيتناول طعامه مع جنوده وحاشيته. انه يتناول وجبة العشاء معهم في أغلب الاحيان، وهم يجلسون سويا على الأرض حول الارز ولحم الضأن ويأكلون بايديهم بالأسلوب البدوي القديم».

وبينما كنا نتناول الصنف الثاني من العشاء مرت سيارة الملك الخضراء خارج الخيمة بسرعة كبيرة. وبعد عدة دقائق جاء واحد من الحراس الى خيمتنا وهو يحمل لفة كبيرة وضعها على الأرض أمامي. وشرح الشيخ يوسف ياسين الأمر قائلا: «ان الملك يهديك واحدة من عباءاته كتذكار.» ثم أضاف ضاحكا: «الآن يمكنك العودة الى جدة كسعودي حقيقي». وفك الشيخ يوسف ياسين اللفة فسقطت منها جبة دشداشة تغطي الساقين وغطرة (كوفية) من صوف الكشمير وعليها العقال الملكي المطرز بخيوط الذهب والحرير الأبيض، وعباءة ايضاً بنية اللون، فخمة ومصنوعة من صوف الجمال وموشاة بالذهب والفضة.

وبعد العشاء ركبنا السيارة مرة اخرى متجهين الى جدة في تلك الليلة الدافئة. وقابلنا عددا كبيراً من القوافل في طريقها الى مكة المكرمة. وكانت هذه القوافل تتألف من جمال تسير في طابور طويل الواحد وراء الآخرى، ويبلغ عددها في بعض الأحيان مئة، وهي تحمل مواد البناء وصناديق

وشــوالات وصلت عن طريق البحــر الى جدة، وكـانت ستستخـدم في التحسينات الكثيرة التي كان الملك يدخلها على مكة المكرمة.

ومرة أو مرتين إجتازتنا إحدى السيارات الملكية في طريقها مسرعة نحو جدة وهي تحمل رسولا خاصاً تم إرساله دون شك بعد عودة الملك إلى مكة المكرمة. وهكذا بدأ النشاط في حياة هذا الحاكم الجديد مرة أخرى تحت ظل الكعبة المشرفة، وذلك بعد أن توقف فترة بعد الظهر في أثناء حديثه معي.

هوامش

(١) فؤاد حمزة، لبناني من الشوف.
(٢) الشيخ يوسف ياسين، سوري من اللاذقية.
(٣) إتفـاق «هـدا» وإتفاق «بحرة» المهمان اللذان عقدا في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٥ لتعيين الحدود بين المملكة العربية السعودية وشرق الأردن والعراق.

الفصل الثاني

الأردن:
تدهور الدين من تدهور السلطة

٢ الملك عبد الله

السبب الرئيسي وراء مجيئي الى الأردن كانت رغبتي في لقاء الأمير عبد الله حاكم البلاد وإبن الشريف حسين ملك الحجاز الراحل، وان أزور المكان الذي ربما أصبح ذات يوم المركز السياسي لدولة عربية تضم فلسطين وشرق الأردن. ولكن وراء زيارتي أيضا فضول شخصي أكبر. فلقد كانت الصورة الذكية التي رسمها ت.أ. لورانس (لورانس العرب) للأمير عبد الله نابضة بالحياة الى الحد الذي جعلني تواقاً لرؤية الأصل.

وكان قصر الأمير عبد الله يقع على تل عمّان، وهو على مسيرة دقائق قليلة فقط من فندقي، ولكنني شعرت أنه لن يكون من المناسب أن أتوجه لزيارة حاكم البلاد سيرا على الاقدام. لذلك رتب لي مدير الفندق سيارة تاكسي ظهرت على الفور من حيث لا أدري في اللحظة التي كنت أغادر فيها الفندق.

وكان المشهد من التل الذي يقع عليه القصر الملكي يبعث في النفس سروراً كافياً دون أن يكون ملهماً. ولم يكن في مشهد القصر أيضاً ما يحرك النفس. فقد كان عبارة عن مبنى حديث الطراز صغير الحجم بدون قيمة معمارية، وكان الطريق المؤدي إليه مباشرة خالياً تماماً من أية علامات بارزة.

كان هناك جنديان فقط عند مدخل القصر، ولم أر أي حراس آخرين. وكان انعدام مظاهر الاستعراض العسكري في بلاط ملكي شرقي أمراً مدهشاً للغاية. كما كان خير دعاية للأمير عبد الله.

كان لقائي بالأمير عبد الله، في جو خال من المظاهر الرسمية ومن الحراس المسلحين، شيئاً منعشاً بعد الجو المشحون بالتوتر الذي دارت فيه بعض محادثاتي في فلسطين. بل لقد كان اللقاء منعشاً الى الحد الذي

جعلني لا أكترث للأثاث الاوروبي وكثرة الساعات الألمانية الحديثة. وكانت تزين جدران معظم الحجرات صور كبيرة لملك العراق الراحل فيصل شقيق الأمير عبد الله الأصغر، وصورة أو اثنان للملك (الشريف) حسين. ولم يكن هناك ما يوحي بالطابع الشرقي للقصر باستثناء السجاجيد. ولم أر مجموعة الأسلحة القديمة التي احتفظ بها الأمير عبد الله في القصر والتي يقال أنها جميلة جداً. وكانت اللوحات الفنية المعلقة على الجدران عبارة عن رسوم اوروبية لمناظر شرقية، كمناظر الغروب التي يغلب عليها اللون البنفسجي وما الى ذلك، ورسوم تصور بعض الأحداث في حياة الأمير الهاشمي.

ونادراً ما التقيت بشخص تماثلت صورته الحقيقية بهذه الدقة مع الصورة التي كنت قد رسمتها عنه في مخيلتي كالأمير عبد الله. والأمير عبد الله ممتلىء الجسم، وفي عينيه الذكيتين بريق، ومن الجلي أنه يحب الحياة كثيراً. وقد بدا الوقار من السمات التي خلفتها عليه منزلته، فيما بدت سمة المرح أصدق تعبيراً عن طبيعته. وكان يتدلى من حزام الأمير خنجر فضي ومطعم بالذهب هو آية في الجمال.

وكثيراً ما واجهت في محادثاتي مع الشرقيين مراوغة لم تفلح حتى الجهود المضنية التي بذلتها من جانبي في التغلب عليها. ولكن رغبة الأمير عبد الله الشديدة في الحصول على معلومات معينة مني قضت على أي مراوغة من هذا القبيل. فكان أول سؤال وجهه لي الأمير: «سمعت انك قابلت الملك عبد العزيز بن سعود. كيف حاله، وكيف حال الجميع؟ هل ابناؤه بخير؟»

وبدا الأمير نافد الصبر. ولم أكد انتهي من إجابتي حتى هبط عليّ بسيل من الأسئلة المتلاحقة: كيف حال الناس في الحجاز؟ هل هم راضون؟ «ألم يؤل حالهم الى الفقر الشديد؟ هل يشكون؟ كيف كان موسم الحج؟ هل بقيت للناس الحرية؟ ماذا عن الاكراه الديني؟» كان يبدو وكأنه لا يستطيع أن يصبر حتى أوافيه بإجاباتي، اذ أصبح وجهه متلهفا كوجه تلميذ. ولا أدري ما اذا كان الحماس للملك عبد العزيز الذي إتسم به تقريري قد راق له حقيقة.

وعندما اطلعته على صورة كنت قد التقطتها للملك عبد العزيز بن سعود وأبنائه امسك بها وانحنى فوقها وأخذ يتأملها بضع دقائق. أتراه

كان يحاول أن يستشف لمحة خاطفة عن مستقبله فيما لو كان هو في تلك الورقة المربعة الصغيرة؟

بعد حوالي ربع ساعة من هذه المقدمة عن المملكة العربية السعودية أسند الأمير عبد الله بظهره الى الوراء وقال: «والآن ما هي الأسئلة التي ستوجهها اليّ؟».

وسألته فيما اذا كان الاسلام قد ضعف في الشرق الأدنى، فنفى اي إدعاء من هذا القبيل. وكان كمعظم المسلمين يود لو أنني صدقت أن إنطباعاتي كانت كلها خاطئة، وإن الاسلام ما زال محتفظاً بكل قوته السابقة. ومع ذلك عندما سألته عن رأيه في تأثير الفكر الغربي على العقل العربي صاح بحرارة:

■ «هنا مكمن الشر الحقيقي. ان التأثير الغربي هو الذي يقوض الروح الدينية للمسلمين، ولولاه لأصبح الاسلام قوياً كما كان عهده دائماً.»

□ قلت للأمير: «أفهم من ذلك ان سموكم تستنكرون ضعف الروح الدينية؟»

■ «بالطبع، فالتدهور الديني معناه دائما تدهور قومي، وتدهور الفضيلة وتدهور السلطة.»

□ «ما هي الوسائل التي تأمل ان تناهض بها مثل هذا الانحلال الديني في بلادك؟»

أطرق الأمير عبد الله حوالي دقيقة على الأقل، وبدا انه كان يفكر جاهداً، ثم قال:

■ «لا يمكنني أن أجيب على هذا السؤال بسرعة».

وعندئذ إستدعى سكرتيراً وأمره بإحضار قلم وورقة. وبينما ذهب السكرتير ليفعل ذلك، ظل الأمير عبد الله صامتاً يفكر في عمق. وبعد بضع دقائق بدأ يملي الإجابة على السكرتير. وقد جاءت كلماته بطيئة ، وبدا أنها كانت تتطلب تركيزاً ذهنياً كبيراً. وكان هذا هو ما أملاه:

■ «إن التقوية الضرورية للروح الدينية لا يمكن أن تتحقق إلا من خلال تنظيم جهود كل المؤمنين بقوة الدين. فيجب تشكيل جمعيات في مختلف انحاء البلاد بغض النظر عن الطوائف الدينية التي ينتمي اليها أعضاء هذه الجمعيات. وعلى هذه الجمعيات أن تتعاون في محاولة لتقوية

المشاعر الدينية للناس وتقاتل الالحاد قبل أي شيء آخر. ويجب عمل شيء مماثل في مجال التعليم. وعلى الدولة أن تتخذ الترتيبات اللازمة لكي يتلقى الجيل الجديد تعليماً دينياً مناسباً في المدرسة».

وتوقف الأمير ثانية ثم إستطرد مستديراً باتجاهي: «إننا نفعل ذلك في هذا البلد من خلال العناية الخاصة بتدريس التعليم الديني للأطفال المسلمين والمسيحيين على حد سواء، وسوف نبذل محاولات أكبر في المستقبل إن شاء الله».

وكان من الواضح شعور الأمير بالإرتياح عندما انتهى من الإجابة على سؤالي. وأضاف وهو يقدم لي الجواب المكتوب على الورقة: «هذا كل ما أستطيع أن أقوله عن هذا الموضوع الآن. وأي إضافة جديدة إلى هذه الورقة ستحتاج إلى تفكير عميق جداً». وعاد البريق الى عينيه عندما قال لي أخيرا: «هل لديك اسئلة أخرى؟»

من الواضح أن الأمير عبد الله كان ينظر الى مناقشتنا حتى تلك اللحظة كواجب ثقيل إلى حد ما، ولكنه في اللحظة التي ذكرت فيها كلمتي «الآداب» و«الفنون» أخذته صحوة وأمر بمزيد من القهوة. وفي غضون خمس دقائق كان مستغرقاً تماماً في الموضوع. وبدأ الأمير متردداً أثناء حديثه، إلى أن ألقى أطراف كوفيته على رأسه وكأن ذلك سيمنحه حرية أكبر في الحديث والحركة.

وتحدث فترة باسهاب عن القيم النسبية للفنون المختلفة ثم تجلى أخيراً في شبه تمجيد شاعري للموسيقى. قال في حماس: «الموسيقى! آه ليس هناك ما هو أسمى من الموسيقى، لا شيء إلا أصوات وأصوات إيقاع. لا رسم أو تصوير أو نحت، ولا نشاز، ولا توسل الى فكر مضلل. إنها متعة حسية خالصة. لا حاجة بك لأن تفكر، ولا حاجة بك أن تترجم من وسيلة تعبير إلى أخرى. إنها مخاطبة مباشرة للحواس. إنها أكمل الفنون جميعاً».

لم يعد الأمير عبد الله في تلك اللحظة مجرد حاكم دولة مستقلة تسيطر عليها قوة أجنبية، أو ذاك الحاكم الذي ينتابه شعور من خيبة الأمل وشعور بالملل، وإنما حاكم عظيم للماضي العربي المجيد، حيث كان في مقدور الخليفة أن ينصب نفسه راعياً للفنون قبل أي شيء آخر. وقبض على ذراعي بقوة في نوبة حماسه، بينما إستمر يتحدث بسرور واضح، وقد

أخذت يداه تتحركان أمامي هبوطاً وصعوداً وكأنهما طائران أبيضان.

من المؤكد أن الأمير عبد الله لن يشعر بأي حيرة في التصرف في عشرة أضعاف الأموال التي تتيحها له ميزانية بلاده الضئيلة. وبإستطاعتي أن أتخيله وهو يتصدر بلاطاً يعج بالشعراء والفنانين. وما أكبر النجاح الذي سيكفله له. وكانت الطريقة التي يتكلم بها تكشف عن تذوقه للأدب. كانت لغته جميلة وغنية وذات جرس. ونادراً ما إستمعت الى لغة عربية بمثل هذا الجمال منذ محادثتي مع الشيخ مصطفى المراغي شيخ جامع الأزهر في القاهرة. كان هناك شيء حقيقي في البهجة التي كان يجدها في التعبير عن أفكاره بكلمات منتقاة بعناية وفي الاستماع إلى إيقاعاتها المنغمة.

• • •

لا يجد المرء في الأمير عبد الله أياً من ذلك الجمال الرومانسي أو الروح القتالية التي كان يتميز بها أخوه الراحل الملك فيصل، كما لا يجد فيه المسحة الانسانية العميقة التي يجدها في الملك عبد العزيز بن سعود. إنه يولد حرارة ولكنه لا يشع نوراً. ولم يكن هناك مناص من أن يحل حبه الطبيعي للحياة محل جلالة العرش. فالأمير عبد الله ليس بالرجل الذي يمكن أن يتزعم حركة وحدة عربية في المستقبل، ولكنني اتجاسر على القول بأنه ليس هناك الكثيرون ممن يمكنهم أن يكونوا أفضل منه لحكم بلد صغير يعود القول الفصل في سياسته لسيطرة الحكومة البريطانية.

ويقال أن التأثير الواقعي لامكانياته المادية المحدودة كان له دور كبير في تحويل أحلامه السابقة بشأن أسرته المالكة إلى صورة أكثر واقعية. وقد علمته التجربة إلى أين يتجه تحقيقاً لمصلحته. وقد أظهر في السنوات القليلة الأخيرة ـ وخاصة فيما يتعلق بالاضطرابات في فلسطين عام ١٩٣٦ ـ صفات تنم عن سداد الرأي والاخلاص. وقد أثبتت تلك السنوات أنه أعظم مما قد يقر به أعداؤه. ويبدو ان الدين بالنسبة اليه هو مسألة تقاليد وسياسة أكثر منه مسألة تستحوذ على إهتمامه الشخصي العميق.

ورغم أنه لا يبلغ في العلم مبلغ أبيه، ورغم أنه ليس بالشخص الحالم، كما كان أخوه الملك فيصل، الذي كان أكثر منه عنفاً وجمالاً، الا أنه

يفـوقهما كليهما في دهائه. ويؤدي الأمير عبد الله مهام منصبه بجدية بالغة. وتلاصق مكاتب حكومته الفندق الذي أقيم فيه. وعندما غادرت الفنـدق صباح اليوم التالي في جولة على الأقدام، وكانت الساعة قبيل الثامنة بدقائق، رأيته في طريقه الى مكتبه في سيارة فارهة ليمونية اللون، وكان يزين مقدمتها تاج ذهبي وكان على مؤخرتها تاج آخر.

● ● ●

إقتـرح عليّ الأمـير عبد الله أن أرى عدداً من الشخصيات، وأمر سكرتيره بأن يتصل بهم وأن يرتب المواعيد الضرورية. ويا لها من نعمة أن يكون الانسان في بلد صغير حيث يمكن ترتيب مواعيد مع ستة من كبـار المسؤولين خلال ربع ساعة، اذ لا توجد، بيروقراطية أو مظهرية تجعل من عمل الباحث والكاتب تعاسة لا خلاص منها.

وكان غياب المظاهر الرسمية، قد اثر في نفسي عندما زرت الأمير عبد الله وعدداً آخر من المسؤولين في شرق الاردن.

وأمضيت معظم وقتي في زيارة الشخصيات التي اقترحها الأمير عبد الله. ولكنني لم أضف جديداً الى معلوماتي عن شرق الاردن إلا من خلال محادثاتي مع إثنين فقط أحدهما رئيس الوزراء والآخر وزير التعليم.

ويخيل إليّ أنني أسمع في كل مكان في شرق الاردن الكلمات الصامتة: «لو كانت إمكانياتنا المادية على نفس مستوى مواردنا الطبيعية لما كان هناك شيء لا نستطيع أن نفعله، وكان بإمكان الاردن أن يلعب دوراً بالغ الأهمية في شؤون الشرق الأدنى!»

والاردن يمتلك إمكانيات زراعية واقتصادية عظيمة، ما زالت في حاجة الى إستكشاف شامل. ولا شك أن تعقيدات الشؤون السياسية للشرق الأدنى قد أخّـرت في تقـدمـه إلى حد جعل هذا التقدم لا يتناسب مع إمكانياته الطبيعية. ولم أستطع أن أمنع شعوراً في نفسي بأن الأمير عبد الله يعتبر أنه قد ضغط داخل إطار أضيق من حجمه بكثير. وكل شيء في البلاد ينضح بالتناقض بين ما كان وما يمكن أن يكون. فالمسرح الروماني أكثر جلالا من أن يتناسب مع بلدة عمّان المتواضعة، كما أن السهول الواسعة والجبال الممتدة على الطريق من فلسطين إلى شرق الأردن تبدو مفرطة في القوة بالنسبة للدولة الصغيرة التي تحيط بها.

□ سألت إبـراهيم باشا هاشم رئيس الوزراء، وهو شخصية آسرة للغاية، عن مطامحه الرسمية الرئيسية فقال:

■ «بصفتي رئيسـاً للحكـومـة لي مطمحان فقط: الأول هو التنمية الاقتصادية لهذه البلاد، والثاني تطوير التعليم. إن هناك حاجة الى عمل الكثير، ولكن ذلك يحتاج الى مال، وهو ما لا نملكه.»

وبدا لي أن رئيس الوزراء كان يخشى من التأثير الضار للفكر الغربي على أخلاق مواطنيه إذ قال:

■ «لقـد نشـأت نشأة دينية، وإنني أؤمن إيماناً عميقاً بالمبادىء الدينية، ولذا فانني أخشى على المستقبل الديني لشعبنا بكل ما ينطوي عليه ذلك، لأن الدين هو الذي يبني لنا الدعائم الاخلاقية الوحيدة التي يمكن أن تقوم عليها حياتنا».

□ «وما الذي ستفعله لمجابهة الانحلال الديني؟»

■ «ما الذي يمكن أن نفعله؟ ماذا تفعلون أنتم في اوروبا؟ هل هناك شيء يمكن للمرء ان يفعله؟»

وذكرت له مشروعات معينة في بريطانيا لي صلة ببعض منها. وتملكه الحمـاس على الفـور وقـال: «نعم تعاون بين الاديان، يتجاوز الحدود القـومية. هذا هو المطلوب. قل لي اذا كان باستطاعتي أن أساعدك في عملك؟ من ناحيتنا سأفعل كل ما بوسعي ». وأدركت أن ما عليك إلا أن تلمس الحماس الديني عند المسلم إلا وستجده يشتعل ككومة من الحطب.

□ قلت له: «أخبرني اميركم أمس أنه يرحب كثيراً بعقد مؤتمر يكون من شأنه تقوية الروح الدينية للشعب. لماذا لا تحاول البدء بالدعوة الى عقد مثل هذا المؤتمر دون السماح له بأن ينحدر الى نزاع سياسي أو ديني؟»

■ «إننا مجرد دولة صغيرة ولا نستطيع أن نفعل الكثير، وبالاضافة الى ذلك فإن كل شيء في الشرق الأدنى يتحول على الفور الى سياسة في هذه الأيام ».

كان إبراهيم باشا هاشم مخلصا في تأسفه لهذه الأحوال التي كانت صورة صادقة للعقل الاسلامي الحديث، حيث يؤدي أدنى استفزاز الى طغيان السياسة على النوايا الروحية. ويبدو أن هناك حاجة في كل مكان

الى عظمة ابن سعود لتعبىء القوة الروحية الكامنة في المسلم وتترجمها إلى عمل. إن الكلمة النهائية بالنسبة للمستقبل السياسي والقومي لشرق الأردن لم تقل بعد.

الفصل الثالث

لبنان: الجزيرة المسيحية في بحر الإسلام

٣ | اميل لاوه

لا بد أن يشعر الزائر في بيروت بخيبة أمل واضحة إذا توقع أن يجد فيها شيئا من روعة الشرق أو مسحة صارخة من الشخصية العربية. فقد بذل الفرنسيون قصارى جهدهم لجعل بيروت مدينة فرنسية بالقدر الذي حاولوا فيه على الأقل في تونس أو الجزائر وفشلوا. لقد أضفى الفرنسيون على العاصمة اللبنانية طابع المعمار «الشرقي» السائد في الكوت دازور، بعد ان زودوها «بالتراموای» ونوادي الضباط التي جعلتها تبدو كمدينة فرنسية على البحر الأبيض المتوسط.

ومع ذلك لم يتمكن الفرنسيون من فصل هذه المدينة «الغربية» الرائعة عن سورية وعن جبل لبنان وأطلال بعلبك وعن بقية الشرق بصورة عامة. وقد تبدو هناك ميول غربية قوية لدى مثقفي لبنان الذين تلقوا تعليمهم في مدارس أميركية وفرنسية وإيطالية وانكليزية في بيروت، ولكن هذه الميول نفسها التي ظهرت في مصر والعراق وسورية لم تستطع أن تنتزع إنتماء هذه الدول الى الشرق.

وعندما تنظر عبر خليج بيروت الذي تحيط به شوارع حديثة تنمو على جوانبها أشجار النخيل، لا بد وأن يسرح بصرك الى اللون القاتم الغالب في الجبال، التي تسرق قممها المغطاة بالجليد زرقة السماء وقت الظهر ولونها الذهبي عند غروب الشمس، وأن تجذب نظرك زهور الجيرانيوم والورود وعروش البوغنفيلية التي تزين في جمال رائع الحدائق وواجهات المنازل، فتشعر وكأنك تنظر الى مشهد مجسم رائع للكوت دازور. ولكنك اذا نظرت الى الشوارع الجانبية في بيروت بخليطها الشرقي من الحركة والخمول، والى القرى الفقيرة المتناثرة على سفوح الجبال، وكأنها تستمد منها القوة، لا بد وأن تدرك أنك على مسافة ألف ميل من الكوت دازور،

وأنك قريب جدا من فلسطين وشرق الاردن وسورية.

والروابط بين لبنان ـ وغالبية سكانه المسيحيين ـ وفرنسا ترجع الى أيام الحروب الصليبية. وقد تعززت هذه الروابط بين الجانبين بصورة أكبر منذ العام ١٨٦٠ عندما أجبر تدخل الدول الغربية تركيا على منح درجة معينة من الاستقلال الذاتي للبنان الذي كان تابعاً لها. ومنذ ذلك الحين تزايدت المصالح الفرنسية في لبنان[1]. وأدى وجود المدارس الفرنسية والجامعة اليسوعية في بيروت، وكذلك القساوسة اليسوعيين الفرنسيين، إلى جانب القساوسة اللبنانيين الذين تعلموا في فرنسا، إلى بناء القاعدة النفسية المناسبة للسيطرة الفرنسية. وبرغم أن دمشق كانت العاصمة الحقيقية لسورية فان المندوب السامي الفرنسي كان يقيم بإستمرار في بيروت. وكان لبنان بساحله الطويل أكثر أهمية من سورية بالنسبة لفرنسا، ولسورية حدود طويلة غير محمية بصورة جيدة، وبها مساحات صحراوية شاسعة.

وبرغم أن فرنسا أنشأت عدة ولايات تتمتع بالحكم الذاتي في سورية (اللاذقية وجبل الدروز وسنجق الاسكندرونة)، فإن الوحدتين السياسيتين الوطنيتين المحددتين في ذلك الوقت كانتا جمهورية سورية وجمهورية لبنان. وكانت أهمية هاتين الجمهوريتين في منطقة الشرق الأدنى أكبر بكثير مما يبرره حجمهما. (كانت مساحتهما أقل من ٦٠ الف ميل مربع، وعدد سكانهما ثلاثة ملايين ونصف المليون نسمة). ومع ذلك كانت هاتان الجمهوريتان بدرجة أهمية مصر نفسها تقريباً بالنسبة للعالم العربي بفضل موقعهما الجغرافي والمستويات الثقافية العالية لسكانهما وإتصالات هؤلاء السكان الوثيقة بالغرب، الى جانب الوعي الوطني الواضح لدى مواطنيهما. وقد لعب السوريون دوراً رائداً كالعادة في معظم الثورات العربية التي حدثت منذ العام ١٩١٩، كما كان لهم الدور الأساسي في معظم أوجه النشاط الثقافي والسياسي في الشرق الأدنى.

والمذاهب السياسية المتناقضة هي التي تؤدي عادة الى رسم صورة لتاريخ لبنان. وأهم مذهبين سياسيين في لبنان هما المتمثلان، أولاً: في النظرة الموالية لفرنسا والمتجسدة في الحكومة، ومعظم معتنقي هذا المذهب هم من المسيحيين. وثانياً: في النظرة المعادية لفرنسا والتي

يعتنقها معظم المسلمين وكثيرون من العرب المسيحيين. وهناك وجهة نظر ثالثة تحاول الابتعاد عن الارتباطات الطائفية. وأتباع النظرة الثالثة موجودون أساساً في صفوف اللبنانيين المتعلمين من مختلف الطوائف، والذين أخذوا يلعبون بصورة أو بأخرى أدواراً هامة في حياة البلاد السياسية والاجتماعية والثقافية.

●●●

دعاني إميل اده رئيس جمهورية لبنان ورئيس الوزراء السابق الى الغداء. وكان مكتب الرئيس إميل اده في مقر الحكومة في «السراي الصغير» الواقع في الميدان الرئيسي في بيروت. أما سكنه الخاص فكان في الطابق الثاني من بناية حديثة للشقق السكنية. وكانت اللافتات على مدخل هذه البناية تشير إلى أن أحد الأطباء وبعض أصحاب الحرف الأخرى يسكنون فيها. وكان هناك جندي واحد من جنود الدرك يقف على بوابة البناية لحراسة المنزل، أما على السطح فكان علم فرنسا الثلاثي الألوان ـ مع شجرة أرز لبنان في ركن من أركانه ـ يرفرف في الهواء. وكانت تقف بالخارج سيارة صالون كبيرة عليها علم صغير. وكان من الواضح أن أحد سكان هذه البناية هو أحد كبار المسؤولين. أما الشقة نفسها فكانت كبيرة وبها أثاث حديث لا ينمّ عن ذوق معين، بينما كانت هناك صور قديمة معلقة على الجدران.

وإميل اده، سوري مسيحي[٢] ـ (تعريف الهوية الطائفية في لبنان يكاد يتقدم على الهوية الرسمية) وكان بإنتظاري مع زوجته وإبنته وإبنه[٣]. وبدا لي قصير القامة على وجهه ملامح الذكاء، وملابسه مفصلة بصورة محكمة حول جسمه، ويتدلى من أحد عراوي سترته وسام «جوقة الشرف» الفرنسي. وكان هناك قدر كبير من الحيوية في كل كلمة وكل حركة صادرة عنه. وبدا وكأنه ممثل لواحد من الأقاليم الجنوبية في الجمعية الوطنية الفرنسية. وهو في الأصل محام نشط على المسرح السياسي اللبناني منذ الحرب العالمية الأولى. وقد كان عضواً في مجلس النواب اللبناني ثم رئيساً للمجلس ثم عضواً في مجلس الشيوخ ثم رئيساً للوزراء، إلى أن وصل في النهاية الى أعلى منصب في البلاد وهو رئاسة الجمهورية اللبنانية.

وقدم لنا ساقي وخادم يرتديان معطفين أبيضين وقفازات بيضاء وجبة غداء ممتازة. وكان الحديث يسيل في رقة وعذوبة كما هو الحال دائما عندما يتناول المرء الطعام مع أشخاص ذوي ثقافة فرنسية. وكان كرم الضيافة أكثر بكثير من المعتاد في المنازل المشابهة في فرنسا، ومع ذلك لم أشعر للحظة واحدة بأنني على مائدة لبنانيين عرب بل مع أناس فرنسيين. وكانت زوجته المصرية المولد ذات شخصية ساحرة، تشترك في الحديث باستمرار مع إبنته الجميلة وإبنه الشاب، وهو محام، ولكنه كان يبدو وكأنه ينظر بجدية متناهية إلى كل شيء في الحياة والى نفسه أيضا. وكانوا يبدون كلهم فرنسيين في ملابسهم وتصرفاتهم إلى درجة أنني أحسست وكأنني في باريس ولست مع الأسرة الأولى في دولة عربية تفتخر بانتسابها الى الفينيقيين.

وبعد الغداء اصطحبني الرئيس إميل أده الى غرفة صغيرة. وشعرت عند بدء الحديث أنه يستمتع بعرض وجهات نظره بالصورة نفسها التي إستمتعت أنا نفسي بالاستماع إليها.

■ قال إميل اده: «إن القومية هي الأساس الطبيعي للحياة في دولة عصرية . بالنسبة إلينا القومية تعني الاستقلال الكامل للبنان كوحدة جغرافية وسياسية والتحالف الأبدي مع فرنسا. إن بعض المسلمين يتحدثون عن إتحاد مع سورية. إن ذلك يتعارض مع مصالحنا كلها. نحن المسيحيين نمثل الأغلبية في هذه الدولة، وإذا اتحدنا مع سورية فستبلعنا أغلبية السكان المسلمين هناك. ولكن هناك أيضا أسباباً أخرى تمنع قيام مثل هذا الاتحاد».

«أولاً: إننا أمة تختلف تماماً عن سورية. إن تقاليدهم وأسلوب حياتهم مختلفة عن تقاليدنا وأسلوب حياتنا. أنظر الى بيروت: هل هي مدينة شرقية؟ إن دمشق مدينة شرقية، ولكنك تشعر هنا وكأنك في جنوب فرنسا. أنظر إلى منازلنا والملابس التي نرتديها وسياراتنا. إننا نبدو وكأننا على مسافة مئات الأميال من دمشق. ويجب أن تتذكر أن الأمر لا يقتصر على أن ابناءنا درسوا في جامعات أوروبية، بل لأن آباءنا أنفسهم نشأوا في ظل ثقافة غربية ودرس كثيرون منهم في الخارج. من ناحية أخرى فالسوريون عرب مسلمون ليس فيهم أي شيء غربي.»

«ثانياً: أنظر الى الاقتصاد. إن رسوم الاستيراد التي يحرص

السوريون الى أقصى حد على تقاسمها معنا تتكون في معظمها من الأموال التي يتم دفعها على السلع التي نشتريها نحن باحتياجاتنا الأكثر للبضائع الاستهلاكية ورغبتنا الأوسع في وسائل الراحة، وهم لا يدفعون شيئاً منها. إننا نرغب في الصداقة معهم، ولكن..» وهنا رفع إميل إده يديه في تعبير واضح الى أقصى حد قائلا: «يجب أن نظل باستمرار معارضين للوحدة معهم».

□ «هذا يعني يا فخامة الرئيس أنكم تفضلون التحالف مع فرنسا على التحالف مع سورية؟»

■ «إن التحالف مع فرنسا هو النتيجة الطبيعية للموقف الذي نجد أنفسنا فيه. لقد ساعدتنا فرنسا كثيراً في الماضي، فضلاً عن أن معظمنا يتكلم اللغة الفرنسية. أنظر اليّ على سبيل المثال، إنني فرنسي أكثر مني عربي. لقد نشأت كمسيحي وإنني أتصرف بالصورة التي يتصرف بها الفرنسيون تماماً». (وبدا لي هنا أن هناك نبرة إعتزاز في صوته).

□ «ولكن لماذا ترغبون في تحالف أبدي مع فرنسا؟»(٤)

■ «لأن بعض الدول المجاورة لنا ستبتلعنا من دون حماية دولة أجنبية كبرى لنا. وإلى جانب ذلك فإن لدينا مهمة يجب علينا تنفيذها في الشرق الأدنى. إننا نمثل الجزيرة المسيحية الوحيدة في بحر من الدول الاسلامية».

□ «إذاً، أنتم تعارضون العروبة؟»

■«إن العروبة تتعارض مع مصالحنا. وإذا كان بعض المسلمين في لبنان يؤيدون العروبة، فإن المسيحيين اللبنانيين يمقتونها بشدة».

□ «تتحدثون يا فخامة الرئيس عن مهمتكم المسيحية، مع أن المسيحية ليست دين الدولة الرسمي في لبنان».

■ «كلا إنها ليست الدين الرسمي للدولة. وربما كنا الدولة الوحيدة في الشرق الأدنى التي ليس لها دين رسمي. ذلك لأن هناك عدداً كبيراً من الطوائف الدينية في لبنان. ولسوء الحظ إن رجال الدين من مختلف الطوائف يلعبون بإستمرار دوراً في الحياة السياسية أكبر مما تتطلبه مصلحة البلاد. وبما أنهم يخلطون الدين بالسياسة، فإننا كدولة لا نرغب في تعقيد الأمور بالتدخل في المسائل الدينية بأية صورة. وإذا حدث أن تدخلت الدولة فستجد نفسها في ورطة فظيعة نظراً لوجود أغلبية

مارونية وأقلية أورثوذكسية وأخرى كاثوليكية، الى جانب مسلمين من السنة ومسلمين من الشيعة ودروز وأرمن وبروتستانت ويهود».

وللمرة الأولى بدا على الرئيس إميل أده القلق بصورة حقيقية. وتوقف عن الحديث عدة ثوان ثم إستمر قائلا: «إن الطوائف المسيحية تمارس عن طريق رجال الدين نفوذاً سياسياً قوياً. وليس لدينا (أي الدولة) القوة لوقف نشاطهم السياسي حتى إذا رغبنا في ذلك. ومن الأفضل عدم المس بهذه المشكلة اطلاقاً.»

■ وإستمر الرئيس إميل إده في الكلام: «وحتى في وضعنا الحالي فان كل تعيين جديد في أحد المناصب الحكومية أو الادارية يثير قدراً من السخط في أوساط احدى الطوائف الدينية في لبنان. آه لو كان الانسان حراً... آه لو كان الانسان حراً لكي يتصرف بالصورة الضرورية... آه لو كنت أملك حرية تعيين الأشخاص وفقاً لمؤهلاتهم وليس وفقاً لدينهم.»

□ «ألا تعتقد يا فخامة الرئيس أن الأمر يحتاج الى ديكتاتور لجعل الحكم في لبنان أقل صعوبة؟»

■ هنا رفع الرئيس إميل إده يديه في رعب وصاح قائلاً: «إنني أعارض كل أنواع الديكتاتورية. إنني اؤيد الديموقراطية». وتوقف عن الحديث للحظة ثم إستطرد قائلاً بنبرة مختلفة: «آه لو كان باستطاعتنا تحقيق الديموقراطية بالصورة الموجودة بها في انكلترا، حيث لا تفرض الديموقراطية بصورة مصطنعة على شعب ليس مستعداً لها، وحيث تعتبر الديموقراطية تعبيراً طبيعياً عن الوعي السياسي وعن الاحساس السائد بالانتماء الى الوطن. يا لكم من سعداء في انكلترا، ويا لها من دولة!»

وخرجت هذه الكلمات منه مع زفرة عاطفية تؤكد مدى إخلاصه في هذا الحديث.

● ● ●

أدت محادثاتي مع الوزراء اللبنانيين ومع العديد من الشخصيات البارزة في لبنان الى تأييد وجهة النظر الرسمية التي ذكرها لي الرئيس إميل إده. وذهب بعضهم الى حد تأكيد أن إنتشار الشعور بالعروبة وبالقومية العربية يوازي انتشار المد الاسلامي. ولكن ذلك لم يكن يتفق مع وجهة نظر ممثلي الطوائف الاسلامية الذين تحدثت معهم. فقد كان

من الواضح لديهم أن هناك انحساراً ملحوظاً في المشاعر الدينية لدى مسلمي لبنان، وبالتالي فان هناك أسباباً أخرى لعواطفهم المؤيدة للعروبة.

وذكر لي واحد من رجال التعليم اللبنانيين العرب البارزين في بيروت: «إننا نحتاج إلى مساعدات عسكرية متبادلة وإلى تعاون اقتصادي كي نستطيع الاستمرار والنمو، ولا نستطيع تحقيق ذلك إلا عن طريق إتحاد عربي شامل، بادئين بإنشاء سورية الكبرى. إن الطرح العنصري أو الديني لا يهمنـا كثيراً، لأن عوامل اللغة المشتركة والواجبات والحقوق المشتركة تدفعنا إلى شكل من أشكال الوحدة أو الاتحاد الفيدرالي. ربما تكون هناك فروق كبيرة بين مصر ونجد والحجاز وشرق الاردن وسورية والعراق، ولكن المشكلات التي يتعين على هذه الأقطار حلها متشابهة الى درجة كبيرة: فهناك مشكلة تعليم الفلاحين والبدو وسكان الجبال، وهناك مشكلة إدخال وسائل النظافة والرعاية الصحية الحديثة، ومشكلة رفع المستوى الثقافي والاجتماعي العام. وحتى في مصر ستجد أن المتعلمين لا يشكلون سوى طبقـة عليـا صغـيرة. فضـلا عن وجود رابطة التاريخ المشترك. إننا نشعر أن من حقنا التطلع الى ماضينا المجيد وإلى إحياء ذكريات الخلفاء العظام. قد تبدو لك هذه الأشياء مجرد ميول عاطفية ليس لها معنى محدد، ولكنها تمثل بالنسبة لنا دافعا حقيقياً من أجل التقدم. إن الماضي يمكن أن يتحول إلى حاضر مرة أخرى إذا إتحدنا مع سورية وبعد ذلك مع الدول العربية الأخرى.»

وبدا لي أن اللبنانيين العرب الذين يطالبون بالوحدة مع سورية ليسوا أكثر من مجرد حالمين. وعلى الرغم من وضوح أفكارهم فقد كانوا أكثر تأثيراً في النفس من «الواقعيين» الذين يتمتعون بخبرة أكبر في الحياة السيـاسيـة الرسميـة، والذين لم يبـدُ عليهم إطلاقاً أنهم يستطيعون الوصول الى أبعد من أهدافهم الآنية. ورغم ما يبدو على اللبنانيين العرب الداعين للوحدة مع سورية من ظواهر العنف وعدم الانضباط، إلا أنه كانت لديهم رؤيا مشعة وكان إيمانهم بالمثل العليا التي يسعون إليها متوقداً في أعماقهم.

كمـا أن هنـاك ناحيـة أخـرى جديـرة بالملاحظة، وهي أن ارتفاع مستويات المعيشة ودرجة الثراء في لبنان التي هي اكثر مما هي عليه في

سورية وغيرها من الدول العربية أدى الى نشوء نوع من السلوك التجاري في العمل السياسي. وينطبق ذلك على السياسيين المسيحيين والمسلمين على حد سواء. وقد إستسلم بعض اللبنانيين العرب لحقيقة انه لا يمكن لبلادهم ان تستمر دون فرنسا، وأن من الحكمة الإعتراف بذلك والكف عن السعي الى تحقيق أحلام الوحدة العربية. وأدت هذه الروح الإنهزامية الى جعل اللبنانيين أقل مثالية من العرب الآخرين في سورية. ونتيجة لذلك فإن هناك من يقول إن المطامع الشخصية تلعب في بيروت دوراً أكبر مما تلعبه في دمشق.

●●●

ويعتبر الدين أهم موضوعات الحياة اللبنانية التي تشكل مشكلة معقدة أكثر من أي موضوع آخر. وقد دخل الدين الى مجالات غير متوقعة اطلاقاً بسبب إتصاله الوثيق بالسياسة. وفي الوقت نفسه إبتعد الدين الى حد كبير عن قواعده الشرعية.

إن حكومة لبنان لا تمثل حزباً، كما أنها ليست في الوقت نفسه حكومة غير حزبية. إنها تمثل تآلفا دائماً بين الطوائف الدينية العديدة. ولا يتم تعيين الوزير أو الموظف الحكومي أو ناظر المدرسة أو طبيب الحي وفقاً لمؤهلاته الوظيفية وإنما على أساس الانتماء الطائفي. وأدى تدخل المراجع الدينية في السياسة الى إنتهاكات وتدهور خطير في الدين بصورة عامة. وشكى كل شخص تحدثت إليه بمرارة من النشاط السياسي لرجال الدين، سواء كان هذا الشخص أستاذاً في الجامعة أو سياسياً أو رجل أعمال أو موظفاً، مسيحياً أو مسلماً. ولم يكن هناك زعيم يتمتع بالقوة الكافية لمعالجة هذه المشكلة.

وتدرك الحكومة اللبنانية مدى ضعفها، ولذلك لا تجرؤ على إثارة عداء أي طائفة من الطوائف عن طريق إزالة النفوذ الدنيوي لرجال الدين. ولخص أحد أعضاء الحكومة اللبنانية الموقف الرسمي بقوله: «يجب علينا أن نلتزم جانب الحرص واللباقة. ولن يتحلى شبابنا بالروح الوطنية بدلاً من الروح الطائفية إلا إذا تولت الدولة مسؤولية التعليم بأكمله. ولن يمكن إنقاذ شبابنا وبالتالي شعبنا بأكمله من نفوذ رجال الدين إلا

عن طريق حكومة علمانية تماماً».

وبرغم أن الفرنسيين يفتخرون بالفصل بين الدولة والكنيسة في بلادهم، فإنهم بدأوا في لبنان بإستخدام رجال الدين لتحقيق أهدافهم السياسية الذاتية. وأصبحت المدارس والمعاهد الفرنسية مراكز للدعاية السياسية الفرنسية.

ولم يفعل الانتداب الفرنسي أي شيء لوقف النشاط السياسي لرجال الدين وإنما في الواقع شجع هذا النشاط إلى حد ما، لأن التفرقة بين الطوائف المختلفة كانت تدعم سلطة فرنسا. وقد إتضحت السلبية في هذا السلوك بصورة بيِّنة في مقال نشرته جريدة «لوتمب» في كانون الثاني (يناير) ١٩٢٦، وأشارت فيه الى مهمة المندوب السامي الفرنسي الجديد المسيو دي جوفينال بهذه الكلمات: «إن واجب المسيو دي جوفينال واضح المعالم تماماً، وينحصر في تنفيذ مبدأ فرق تسد». ومع ذلك بدأت هذه السياسة تهدد الفرنسيين أنفسهم. إن الموارنة شرقيون أساساً بصرف النظر عن ديانتهم المسيحية، وليست لديهم الرغبة في إتباع فرنسا بصورة عمياء. كما انه ليس من المستبعد أن يجد هؤلاء الموارنة أنفسهم في معسكر واحد مع أشقائهم المسلمين.

هوامش

(١) «يـؤكـد المسؤولون الفرنسيون دائماً ان فرنسا لها حقوق تاريخية اساسية تعود منذ عهد الحروب الصليبية الى عهد شرلمان وإن سورية بمثابة مقاطعة الزاس ثانية تمد ذراعيها نحو فرنسـا ولا بد لفـرنسـا من أن تستجيب لها من كتاب «عالم الاسلام الجديد» بقلم: لوثار ستودارد ـ تشبمان اندهول ـ لندن ١٩٢١

(٢) هكذا ورد في النص الانكليزي للكتاب.

(٣) لا يذكر الكاتب اي واحد من أبنائه، ريمون أم بيار.

(٤) تتحدث المعاهدة بين الطرفين في فقرتها الأولى عن «سلام وصداقة أبدية بين فرنسا ولبنان»

الفَصل
الرّابع

سُوريـة :

الوحـدة العربيّـة هدف نهائي

٤ فارس الخوري، فخري البارودي وآخرون

بينما إستسلم اللبنانيون لفرنسا دون مقاومة عنيفة، لم يجد السوريون أن هناك أي مبرر للانتداب الفرنسي على بلادهم[1]. وإنعكس موقف الشعب السوري في كفاح مستمر. وكان أخطر عصيان سوري ضد الفرنسيين قد جرى عام ١٩٢٥. ولم ينجح الفرنسيون في قمع هذه الحركة إلا بعد إنقضاء عامين. وقد بدأت الثورة في جبال الدروز في جنوب شرق سورية بقيادة الزعيم الدرزي سلطان باشا الأطرش. وبعد فترة قصيرة إنتشرت الثورة في كافة أنحاء سورية. وكانت هذه هي حركة التمرد الكبيرة السادسة، التي بلغت ذروتها في تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٢٥ عندما قصف الفرنسيون دمشق. وأدت قذائف المدفعية الفرنسية الى تدمير بعض أنحاء المدينة وكثير من الأماكن ذات القيمة التاريخية الكبيرة.

صمد السوريون في الكفاح من أجل ما اعتبروه حقوقهم الطبيعية. وفي العام ١٩٣٠ وافق الفرنسيون على منحهم رئيساً للجمهورية ومجلساً للوزراء وبرلماناً. ومع ذلك لم يؤد الدستور الى إزاحة المندوب السامي الفرنسي الذي كان يسيطر على شؤون سورية من بيروت، كما لم يؤد الى خروج الجيش الفرنسي من البلاد. وتم إبرام معاهدة ١٩٣٦ مع فرنسا (على أساس تنفيذها بالكامل خلال ثلاثة أعوام) والتي تعد بمنح سورية الاستقلال الكامل.

ولم يكن التحالف مع فرنسا أبدياً كما هو الحال في لبنان المجاور، وإنما لمدة خمسة وعشرين عاماً فقط، ذلك أن السوريين كانوا يبطنون شعوراً بالبغض للفرنسيين يتخذ عادة طابعاً شخصياً وموجهاً الى الأفراد الفرنسيين وعائلاتهم. وقد عبر لي أحد السوريين عن هذا الشعور

بالكلمـات التـالية: «إنني أحب فرنسا وأحترم الفرنسيين في بلادهم. ولكنني أكرههم في بلادي التي تعاني من حكمهم السيء».

ومن الأمور الأساسية التي كان يشكو منها السوريون أن فرنسا إستغلت بلادهم إقتصادياً. وهم يحمّلون فرنسا مسؤولية عدم حدوث تقدم إقتصادي محسوس في بلادهم منذ عام ١٩٢٠. ويقول السوريون إن المسؤولين العسكريين الفرنسيين إستغلوا وظائفهم الرسمية من أجل الكسب الشخصي. وفي إحـدى المناسبات أشرت في حديث إلى شخص سوري إلى أن الرشوة وشراء المناصب الرسمية هو من تقاليد الحكومة السورية. فأجاب قائلا: «قد يكون الأمر كذلك، ولن يدافع أحد منا عن إستقامة حكومتنا لا حاضراً ولا مستقبلاً. ولكن إذا كان لا بد من وجود رشـاوي فإننا نفضل أن تذهب الى جيوب السوريين وليس إلى جيوب الفرنسيين، وأن تنفق هنا بدلاً من أن تُرسل الى فرنسا».

● محمد كرد علي

ولحسن الحظ لا تحتل السياسة دائما مكان الصدارة في الأحاديث، حتى في سورية التي يعتبر سكانها أكثر الشعوب إهتماماً بالسياسة بين بلدان الشرق الأدنى. وفي اليوم الثاني من زيارتي لدمشق كان من حسن حظي أنني استمتعت بصـورة لم أكن أتوقعها بواحد من أقل جوانب الحياة إثارة للمتاعب في سورية، وهو جانب لم يكن معروفاً لي من قبل. وكـان ذلك عندما تلطف الشاعر العربي والكاتب الفلسطيني المعروف إسعاف النشاشيبي في القدس بتزويدي برسالة تعريف الى محمد بك كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي في دمشق.

ونصحت بأن أزور محمد بك كرد علي راعي الأدب العربي في الساعة الخامسة بعد الظهر بعد أن يكون قد انتهى من قيلولته. وبعد الخامسة بقليل كنت أدق جرس باب أحد المنازل الخاصة في الحي السكني الجديد بدمشق. وفتح الباب شاب يرتدي ملابس أوروبية وطربوشاً على رأسه. وعرفته بشخصيتي، فإختفى في الداخل، وعاد بعد دقيقة لكي يعتذر لأن محمد بك كرد علي لن يتمكن من إستقبالي بسبب إنشغاله الشديد. وكان ذلك شيئـاً غريبـاً بالنسبة اليّ بالنظر إلى معرفتي بمدى كرم الضيافة

العربية، وإن التقاليد العربية تنص على أن يستقبلك الضيف مهما كان عدد الزوار معه في ذلك الوقت، أو حتى ولو صرفك بعد خمس دقائق، أو يعتذرون لك بعدم وجوده سواء كان موجوداً أم لا.

وواصلت الالحاح وذكرت أسماء بعض الشخصيات الكبيرة التي تعاملت معها بصورة ما في دمشق. ولا بد ان كلامي كان له بعض الأثر لأن هذا الشاب إنسحب مرة أخرى الى الداخل دون إغلاق الباب، وعبر الفناء الداخلي ثم عاد بعد بضعة ثوان ومعه سيده مسرعاً نحوي. وكان يرتدي بذلة اوروبية وخفاً من الجلد، ولكن لم يكن هناك طربوش على رأسه. ولم يستمع محمد كرد علي الى اعتذاراتي وجذبني من ذراعي عبر الفناء الداخلي وهو يكرر طول الوقت بالفرنسية: «إنني سعيد بمقابلتك. إن زيارتك مهمة للغاية. إن لها أهمية حقيقية. إنني سعيد للغاية بمقابلتك».

ووجدت نفسي في وسط غرفة طويلة، لم أعرف كيف وصلت إليها، واقفاً امام خمسة عشر أو عشرين رجلاً جالسين أمام الحائط يحدقون بأعينهم فيما بدا لي أنه حب استطلاع أكثر منه شعور بالانزعاج. وترك مضيفي ذراعي ونهض جميع الرجال الجالسين.

وكانت غرفة الاستقبال الطويلة داكنة، والستائر تغطي جزءاً كبيراً من النوافذ. وبرغم أن معظم هؤلاء الضيوف كانوا يرتدون الملابس الاوروبية بصورة توحي بالمظهر الغربي والحداثة، فإن التقاليد العربية كانت واضحة في ذلك المكان. ولم تكن هناك نساء بين الحضور. كما كان الضيوف يجلسون وفقا لأعمارهم ومراتبهم. وكان من الواضح أن الرجال الجالسين في مقدمة الحجرة من الشخصيات التي لها وزنها. وكانت ملابسهم تدل على يسر حالهم. أما الشبان الذين كانوا يجلسون في مؤخرة الحجرة فكانت ملابسهم خليطاً من الأزياء الشرقية والغربية.

قال مضيفي: «إننا نحتفل بوداع واحد من أبرز شعرائنا من شرق الأردن».

وفي مقدمة الحجرة كان هناك مقعدان كبيران خاليان. وكان أحدهما مخصصاً للمضيف والآخر للشاعر الأردني الذي لم يصل بعد. وقدم لي المضيف مقعده. وعندما حاولت الاعتذار عن الجلوس في المقعد متفادياً الاحراج ألح عليّ أن أجلس في المقعد الكبير المخصص للشاعر.

وكان الضيوف الآخرون قد جلسوا على مقاعدهم مرة أخرى. وهنا إستدار إليهم محمد بك كرد علي وبدأ خطبة مطولة عن هذا الانكليزي الذي تطفل عليهم بصورة غير متوقعة. وعندما خرجت من فمه كلمة «انكليزي» للمرة الأولى، هب الضيوف واقفين على أقدامهم. وظل هؤلاء الضيوف يستمعون واقفين إلى هذا التقديم عن الضيف الجديد الذي حلّ عليهم. وكنت طوال هذا الوقت الشخص الوحيد الجالس في الحجرة وأنا أشعر بأقصى درجات الإحراج.

وبعد أن وصلت خطبة المديح إلى نهايتها، تم تقديم الضيوف إلي واحداً تلو الآخر مقروناً ببعض العبارات للتعريف به. وكان من بينهم شعراء وكتاب، كما كان هناك وزيراً وربما وزيرين من ذوي الميول الأدبية، بالاضافة إلى مدير جامعة بغداد، وشيخان بالملابس التقليدية وتبدو عليهما ملامح العلم. وبدا لي أن الشبان الموجودين في نهاية الغرفة هم من المبتدئين في مجال الآداب والشعر.

وعندما جلس الحضور مرة أخرى، أخذ محمد بك كرد علي يحدثني بلغة فرنسية قديمة وغير مفهومة تماماً. وبعد أن تحدث لعدة دقائق أدركت أنه يرغب في معرفة نوع العمل الذي أقوم به، وهل أمارس الشعر أم المقالة أم الفلسفة أم النقد. ولم تثنه ردودي المقتضبة عن ترجمة هذه الردود الى لغة عربية مسهبة لكي يفهمها الضيوف الآخرون. وكانت الاجابة التي تتكون من خمس كلمات تتحول الى مئة كلمة عندما تنتقل الى العربية على لسان المضيف.

وعندما بدأ هذا التحقيق يصبح مملاً، ظهر لحسن الحظ الشاعر القادم من شرق الاردن على عتبة الباب. وكان إسمه الشيخ فؤاد الخطيب وهو من أشهر شعراء بلاده ومن أبرز كتّاب العربية. ويطلق عليه البعض لقب «شاعر الثورة». ولدى وصول الشيخ فؤاد الخطيب قفز المضيف من مقعده وأسرع تجاهه واحتضنه وقبله بابتهاج بالغ على وجنتيه. وفعل واحد أو إثنان من الضيوف البارزين الشيء نفسه.

وجلس الشاعر القادم من شرق الاردن الى جانب المضيف، وإنتظر الضيوف الآخرون أن يبدأ الحديث. وبما أنه شاعر الثورة، فلا بد أنه إعتبر أن من المناسب أن ينسى البطولة وأن يتحدث عن الفكاهة بدلاً من ذلك. وهكذا انطلق في تسلية الحاضرين بحكايات ساخرة عن زيارته

الحالية لدمشق. وكان يتحدث باسلوب جيد برغم أنني لم أفهم منه سوى القليل، إلا أن ردود الفعل الصاخبة من المستمعين الآخرين أظهرت مدى حسن إستقبالهم لكلامه. إن «جبل الأوليمب» الأدبي في سورية نسي كل ثوريته وإهتز ضاحكاً في صخب.

وإنتهت الجلسة عندما اعلن في الساعة السادسة والنصف عن تقديم الشـاي، وإنتقلنا جميعاً الى غرفة الطعام. وكان هناك كعك وشيكولاتة وفستق وفطائر وأنواع أخرى من الحلوى الشامية وأكوام من الفواكه، وكانت المائدة بأكملها عامرة بصورة تشهد بكرم الضيافة العربية. ولم أر في حياتي مثل هذه الكميات الضخمة من الكعك والحلوى (والتي تعتبر دمشق المدينة الاولى في صناعة الحلوى في العالم) تستهلك بمثل هذه السرعة من قبل هذا العدد من الشعراء والأدباء.

وبعد تناول الشاي بوقت قصير استأذنت بالانصراف.

وعنـدمـا خرجت إلى الشارع وجدت إثنين من الشعراء الشبان في إنتظاري لكي يدلاني على طريق العودة. وكان أحدهما قد قضى عدة أشهر في انكلتـرا، أما الآخر فكان يتحدث الفرنسية بصعوبة. وكان كلاهما يتحدث في الوقت نفسه وبسرعة كبيرة وبعد فترة من الوقت بدأت أدرك ان الاثنـين يحـاولان تبصـيري بحقيقـة الأمور. وقال الاثنان كيف يمكن لشخص مثلي يتوق بصورة واضحة الى معرفة الحقيقة عن بلادهما، ان يسمح لنفسه بالتوجه إلى حفل بعيد عن الواقع كالحفل الذي حضرناه جميعا لسوء حظنا؟ وقال الاثنان أيضاً إنني ارتكبت الخطأ الذي يقع فيه الأجانب بإستمرار. إن الأجانب يحضرون بإستمرار مجالس المشهورين ثم يعـودون إلى بلادهم بإنـطبـاعـات خاطئة. إن أياً من الرجال ذوي الأسماء الكبيرة لن يتمكن من إطلاعي على الموقف الحقيقي في سورية.

وكان الشاعر الذي يبدي أكبر قدر من الحماس لتصحيح إنطباعاتي الخاطئة، يرتدي بذلة ضيقة إلى أقصى حد وحذاء أعتقد أنه كان يستخدم في لعب التنس في وقت من الأوقات، وطربوشاً لم يعد فيه أي شيء ينم عن لونـه الأصـلي. وأخرج هذا الشاب من جيبه ورقة وكتب عليها بعض الكلمات وأعطاني إياها قائلاً: «هذا هو عنواني. آمل أن تشرفني بزيارتك يوم غد. أو أي يوم آخر إذا رغبت في ذلك. سأكون بإنتظارك بمنزلي غداً بين الخـامسـة والسـادسة بعد الظهر». وعندما أجبته بأنني سأكون

مشغولاً في ذلك الوقت، رد قائلا: «لا يهم، في هذه الحالة سأنتظرك حتى الساعة السابعة أو الثامنة». وكان هناك شيء يثير الاعجاب في حرصه على أن أخرج من سورية بإنطباعات أخرى غير الانطباعات التي تكونت لدي ذلك اليوم في دار رئيس المجمع العلمي العربي في دمشق. وقد أسفت لأن إرتباطاتي منعتني من مقابلته مرة ثانية.

● فارس الخوري

لمعرفة المشكلات الرئيسية التي يمكن أن تؤثر على الحياة السورية في المستقبل ذهبت لمقابلة فارس الخوري، رجل الدولة البارز هناك، والدكتور عبد الرحمن الكيالي، وزير المعارف ومدير الجامعة السورية، وفخري البارودي، زعيم الشباب السوري وواحد من أكثر السياسيين شعبية. وكان فارس الخوري رئيس البرلمان السوري وأحد زعماء الكتلة الوطنية، من أكثر رجال الدولة نفوذاً في بلاده بسبب خبرته السياسية الطويلة. وقد تخرج فارس الخوري من الجامعة الاميركية في بيروت، وهو أيضا أستاذ للقانون في الجامعة الاميركية في بيروت، وهو أيضاً أستاذ للقانون في الجامعة السورية. وكان مظهره وأسلوبه يوحيان بالمهابة، كما كان حديثة لا يخلو من التفخيم.

جلس فارس الخوري أمام مكتبه في غرفته الخاصة في المبنى الجديد لمجلس النواب، وبدأ الحديث بانكليزية ممتازة قائلاً: «إن سورية بالنسبة إلينا ليست المنطقة التي يطلق عليها هذا الأسم اليوم، ولكنها الأراضي كلها التي كانت تمثل في وقت من الأوقات أجزاء من سورية، وهي لبنان وفلسطين والعراق. إن حدودنا الحقيقية يجب أن تكون مع تركيا والحجاز ومصر والبحر الأبيض المتوسط وإيران. ونحن ندرك أنه من المستحيل التوصل الى مثل هذه الدولة الموحدة اليوم. ولهذا السبب فإننا نرغب في إتحاد فيديرالي بين الدول العربية المستقلة. وستكون الخطوة الأولى إتحاداً فيديرالياً مع لبنان. إن الفرقة بيننا وبين لبنان غير طبيعية. إن اولئك اللبنانيين الذين يتحدثون عن الخلافات السياسية وتضارب المصالح الاقتصادية بيننا وبينهم يبالغون في حديثهم. إن الخلافات بيننا أقل بكثير مما يقولون وأوجه التشابه أكثر بكثير مما يقرون».

وتابع فارس الخوري كلامه قائلا: «إن المهمتين الرئيستين أمامنا هما إنشاء جيشنا الخاص ودعم إقتصادنا. إن إحترامنا لأنفسنا يفرض علينا تشكيل جيشنا الخاص. وستكفي فرقة واحدة في هذا الصدد. ليس لدينا في الوقت الحالي سوى الجيش الفرنسي. كيف نعرف أن هذا الجيش لن يستخدم يوماً ما ضد مصالحنا؟ ربما ترغب فرنسا في إستخدامنا للمقايضة مع بريطانيا أو تركيا أو حتى مع إيطاليا. والى جانب ذلك فإننا لسنا إمرأة تطلب حماية الأجنبي. إننا نستطيع حماية أنفسنا».

وهنا رفع فارس الخوري صوته لكي يؤكد كلماته الأخيرة ودار بعينيه في الحجرة، وكأنه يستعرض «الفرقة الواحدة» التي تحدث عنها، ثم إستمر في حديثه قائلاً بلهجة أرق:

«ودعم الاقتصاد هي المهمة الثانية التي لن يتحقق بدونها أي حديث عن الوحدة العربية. إننا نستورد في الوقت الحالي أربعة أضعاف ما نصدره، وقبل أن نتمكن من إنشاء إتحاد عربي يجب أن تحاول كل دولة عربية أن تحقق التوازن الاقتصادي لديها. ولن تستطيع سورية تحقيق ذلك إلا بتخفيض وارداتها بدرجة كبيرة وبخلق صناعات جديدة وببناء الزراعة لديها وإستكمالها. من ناحية أخرى نجد أن الحياة الثقافية لدينا متقدمة بصورة أكبر بكثير من إمكاناتنا الاقتصادية. إن السوريين لديهم رغبة ملحة في التعلم. إننا نرسل ابناءنا للدراسة في الجامعات الاوروبية ولدينا عدد يكاد يفوق اللازم من المتعلمين بالمقارنة إلى عدد الوظائف المتاحة لهم».

● عبد الرحمن الكيالي

أما الدكتور عبد الرحمن الكيالي وزير المعارف والعدل فكان رجلاً نحيل الجسم وعادي المظهر وليس هناك ما يميزه من ناحية السلوك أو الحديث. وعندما زرته للمرة الأولى في السراي كان متحفظاً بل حتى خجولاً. ولكنه سرعان ما تنازل عن كل تحفظاته وأجرى معي أفضل محادثة خرجت بها طوال مدة زيارتي لسورية.

قال الدكتور الكيالي: «ليس هناك داع للمخاوف بشأن الجانب الثقافي للتعليم السوري. إن الشعب السوري شعب ذكي، والشبان يستوعبون

بسرعة الجانب العلمي في دراساتهم. إن الأمر الأكثر صعوبة هو العثور على صورة مناسبة للتعبير عن دوافعهم الروحية الداخلية. ولا يمكن الوصول الى ذلك إلا عن طريق إدخال روح الديانة الحقة في التعليم العام.»

وتردد الدكتور عبد الرحمن الكيالي عدة لحظات في حديثه، وكأنه يتساءل عما إذا كنت قد شعرت بصدمة مما جاء على لسانه بإعتباره رجلاً تربى في بيئة علمية محافظة. ولا بد أن التعبير المتسم على وجهي شجعه، لأنه سرعان ما إستطرد في كلامه بحرارة أكثر من ذي قبل:

«ما هو الدين؟ هل هو الذهاب الى المسجد وإطاعة قواعد الكنيسة؟ قد تكون هذه الصيغة من الدين ضرورية بالنسبة لغير المتعلمين الذين لا يدركون ماذا يمكن أن يقدمه لهم الفكر الحديث والعلوم الحديثة. ولكن هناك أيضاً نوعاً أعمق من الدين، وهو الدافع الروحي الى شيء أفضل من المادة. وهذا الدافع موجود في نفس كل منا، حتى لو كان ضعيفاً بسبب التعليم الخاطىء وضيق أفق المؤسسات الدينية. والأخلاق هي التعبير العملي عن هذا الدافع. وواجب الدولة هو جعل الشبان أكثر وعياً بهذا الدافع والسماح لهم بالتعبير عنه، لأن الدين والمعرفة العلمية سيصبحان عديمي القيمة دون التعبير عن هذا الدافع.»

وتابع الدكتور عبد الرحمن الكيالي حديثه قائلاً: «وفي الوقت نفسه لا يمكن أن يصبح هدف التعليم هو التنافس مع المؤسسات الدينية. ومع ذلك لا تنفذ هذه المؤسسات ما هو متوقع منها. وبينما يشكو معظم رجال الدين من إنحسار المشاعر الدينية بإستمرار، فإن السلطات التعليمية تتلقى بإستمرار قدراً متزايداً من مطالب الآباء بزيادة حصص التعليم الديني. كيف يمكن تنفيذ مثل هذه المطالب؟ إن الطلبة القادمين من بيئة تتميز بتقيد الآباء بالشعائر الدينية بصورة قوية يجب ان يحصلوا على تعليم يتمشى مع الخطوط التقليدية للدين. أما الطلبة الآخرون الذين تحولوا عن معتقداتهم التقليدية تحت تأثير الفكر الغربي، فيجب أن يحصلوا على تعليم غير ديني توجه فيه حواسهم الدينية الى الاخلاق».

ولم ينتظر وزير المعارف السوري أسئلتي بل إستمر في حديثه بحماس عجيب: «ومن بين أصعب الانجازات وأكثرها قيمة بالنسبة للشبان توجيه النواحي الفردية القوية فيهم وتحويلها الى شيء أكثر

إيجابية بالنسبة للمجتمع. يجب تشجيعهم على التعاون الخالي من الأنانية. وهذا يعني أن الشركات والجمعيات التعاونية يجب أن يكون لها الأفضلية في مجال الصناعة السورية بالقياس الى الجهود الفردية الأكثر أنانية. إن الدول العربية كلها لديها مهمة تعليمية واحدة، وهي أن تزرع في نفوس الشباب وعياً جديداً بالمجتمع وبخدمته، قبل أي شيء آخر. وهذا يعني باختصار إخراج أفضل ما هو قائم في نفوس هؤلاء الشبان وان كان غير ظاهر على السطح».

● فخري البارودي

يعتبر فخري البارودي بأنه اكثر السياسيين شعبية في سورية. وهو عضو في البرلمان عن مدينة دمشق وزعيم الشباب السوري. وقد طلب مني أن أزوره ذات صباح في «مكتب فخري البارودي» الشهير، حيث استقبلني هناك عدد من الشبان. وبعد توجيه بعض الأسئلة اليّ اصطحبوني الى حجرة كبيرة خالية تتصدرها منصة عالية حيث جلس فخري البارودي خلف طاولة صغيرة للكتابة. وكان يستقبل هناك أصحاب الالتماسات. وكان كل زائر يقترب منه وينحني في إتجاهه ويهمس بما يريد قوله. ولم تستغرق المحادثة اكثر من دقيقة واحدة. وكان هؤلاء الزوار يبدون بالنسبة اليّ في شكل المتآمرين معه أكثر منهم سكان الدائرة الانتخابية التي يمثلها.

وكان بعض الشبان في الخارج يرتدون خوذات وقمصاناً رمادية اللون ويحيون بعضهم البعض بالتحية الفاشية. وذكرني ذلك بأن هذا المكتب هو أيضاً مقر قيادة «القمصان الحديدية السورية» وهو أول تنظيم عسكري للشباب في البلاد.

ولم يكن هناك في مظهر فخري البارودي ما يوحي بقوته ومدى شعبيته بين الشباب. وكان رجلاً نحيلاً في أوائل الخمسينيات من عمره، وكان سلوكه شرقياً للغاية وكذلك مظهره، وكان شعره منفوشاً ويتمتع بطاقة عصبية كبيرة تجعله يتحرك بسرعة خاطفة. ومع ذلك لم يكن هناك أي شك إطلاقاً في حماسه الملتهب، الذي جعل من هذا السياسي النحيل الجسم شخصية جذابة.

وبعد أن صرف فخري البارودي آخر أصحاب الالتماسات إصطحبني إلى مكتبه الخاص في الطابق العلوي. وهناك سألته: «كيف حصلت على شعبيتك؟ هل عن طريق قدرتك على الخطابة؟»

بدت عليه الدهشة في البداية ثم إستدار ضاحكاً الى الشبان الثلاثة الذين يقومون بحراسته في الغرفة، وسألهم: «قدرتي على الخطابة؟ هل أنا خطيب؟ إنني لم أقم بأي جهد متعمد لكسب الشبان الى صفي. هل فعلت ذلك؟». وهز الشبان الثلاثة رؤوسهم وضحكوا جميعاً. ومع ذلك فقد أكد لي كل شخص قابلته في دمشق إن شعبيته الكبيرة ترجع أساساً إلى قدرته على الخطابة إلى جانب حماسه البالغ. وكان يتقن أسلوب استخدام لغة التخاطب مع الجماهير، وكان يحمل خطبه بالنوادر ويعرف كيف يضحك جماهيره.

وكان البعض في سورية يميل إلى إعتبار فخري البارودي «نكتة وطنية»، ويقولون أنه سياسي غير جاد. ومع ذلك أثبت قدرته وشعبيته لدى الجماهير من على منصة الخطابة مما جعل حماس الناس له يفوق قدراته السياسية.

□ وسألته: «ما هو في رأيك الواجب الأول للشباب السوري؟».

■ «الحصول على كل أنواع المعرفة التي تجعله نداً لشعب أي دولة أوروبية. ولكن المعرفة والعلوم وحدهما لا يكفيان، بل يجب علينا أيضاً أن ننمي التعليم الوطني والسياسي. إن الشباب في بريطانيا وفرنسا وفي البلاد التي حصلت على إستقلالها منذ فترة طويلة ولها كيان قومي لا يحتاجون إلى مثل هذا التعليم. أما بالنسبة الينا فان الاستقلال الوطني الكامل ما زال هدفنا، ويجب أن تكون القومية العربية واحدة من أسمى مهامنا. ولا يكفي أن يكون لدينا أطباء ومهندسون خبراء دون خلفية قوية من المشاعر القومية والوطنية».

وأضاف فخري البارودي قائلاً: «إن الهدف النهائي لشبابنا وللسوريين كلهم هو الوحدة العربية. والخطوة الأولى هي إقامة إتحاد مع لبنان، ثم مع الدول العربية واحدة إثر الأخرى. وعاجلاً أو آجلاً سيتعين على مصر أيضا الإنضمام الينا. وقد يستغرق الأمر عشرين عاماً أو حتى خمسين عاماً ولكن لا بد أن يتحقق ذلك في النهاية».

ليست هناك أشياء كثيرة لها تأثير أقوى من السياسة على العقل

السوري. إن سورية بأكملها تعاني من جرعة زائدة من الحيوية السياسية. وكما هو الحال في أي مكان آخر من الشرق الأدنى لم توضع حدود لهذه الحيوية عن طريق الانضباط الذاتي أو التربية الوطنية.

وطوال مدة إقامتي في سورية لم يدهشني شيء أكثر من الصراحة التي كان يتحدث بها بعض السياسيين. وكان البعض قد حذرني قبل زيارتي إلى دمشق من أن كل ما سأسمعه خلال زيارتي لن يتعدى حدود العموميات دون أي تعليق من جانب المتحدث. ومع ذلك وجدت أنه بعد انقضاء خمس أو عشر دقائق من الحديث يطلق السياسيون العنان لانفسهم ويصبحون أكثر صراحة مما كنت أتوقعه منهم. وكأن وجود غريب محايد لا يهتم بالسياسة الى درجة كبيرة يجعلهم تواقين الى الإعتراف أو الشرح أو الاتهام.

● زعيم معارض

كانت قوة المشاعر السياسية قد إنعكست بصورة واضحة خلال زيارة قمت بها لواحد من معارضي الحكومة[٢]. وكان هذا الشخص من بين الذين تزعموا حركة الثورة على الفرنسيين في العام ١٩٢٥. ولولا أن الآخرين أخبروني بأنه كان ينصب يوماً بعد يوم كمائن للفرنسيين، لما صدقت قط أن هذا الرجل الذي زرته في وقت متأخر بعد العشاء، والذي استقبلني وهو يرتدي روباً من الحرير الأبيض الثقيل المطرز بحواشي حمراء وذهبية، قد سبب للقيادات العسكرية الفرنسية قدراً كبيراً من القلق على مدى شهور طويلة. وكان هذا الزعيم السوري المعارض خريج جامعة المانية شهيرة ويعيش في شقة حديثة وأنيقة. وكان يتحدث الانكليزية بالبساطة والتلقائية التي يتحدث بها رجل لا يهمه من الحياة إلا العيش في شقة جميلة وإستقبال الضيوف الأجانب وهو يرتدي روباً من الحرير الأبيض.

وعندما سألته عن أفضل الوسائل للقضاء على الفساد المالي في الحياة السياسية السورية، أجاب دون تردد للحظة واحدة: «أولاً يجب قتل الفاسدين».

☐ وسألته دون أي شعور بالدهشة: «من تعني بذلك؟»

■ «اولئك الذين يتزعمون الحكومة. إنهم يعملون من أجل مصالحهم الخاصة».

□ «ولكن من المؤكد أنك لا ترغب في قتلهم لمجرد أنك تعتبرهم فاسدين؟».

■ «ليس هناك أسلوب آخر لتعليمهم آداب السلوك العام. يجب أن نقتلهم، وسوف نقتلهم عندما يحين الوقت المناسب».

□ «هل تعتقد حقيقة أن القتل بدل التسامح هو أفضل وسيلة للتثقيف السياسي؟»

■ «نعم، انه ما زال أفضل وسيلة في الشرق الأدنى. قد لا يحدث ذلك في العام الحالي، وربما لا يحدث أيضا في العام المقبل، ولكن عندما تعود الى سورية بعد بضعة أعوام ستجد تغيرات كبيرة، وقد تفتقد بعض الاشخاص الذين قابلتهم هذه المرة».

وبالرغم من أن الشيب كان قد إنتشر في شعر محدثي، فإن حركاته كانت تنم عن قوة الشباب وحيويته. وسأعترف بأنني صدقت القصص التي رواها لي عن نشاطه مع ت. أ. لورانس (لورانس العرب) عندما إشترك الاثنان في نسف القطارات التركية وتمتعا بلذة القتال والقتل. لقد كان في شخصية هذا السياسي السوري شيئاً جذاباً للغاية.

وفي نهاية زيارتي لدمشق بدأت أفهم الأسباب التي جعلت سورية تتمخض عن هذا العدد الكبير من الساسة البارزين في كافة انحاء العالم العربي، والتي تدفع المرء الى اعتبار سورية واحدة من خلايا العروبة الحديثة، إن هناك قوة في العقل السوري وحذاقة عند معظم السياسيين السوريين، لم أجدها في باقي الرجالات العرب. وكانت ملامح الشخصية العربية كلها تبدو في السوريين، وخصوصاً بين سكان المدن، في صورة أكثر كثافة وأكثر حدة. ولا بد ان يلعب السوريون دوراً رائداً في مستقبل الشرق الأدنى.

هوامش

(١) قدم مجلس النواب السوري في ٢ تموز (يوليو) ١٩١٩ مذكرة الى ممثلي مؤتمر السلام في باريس تقول: «إننا لا نعترف بأي حق تدعيه الحكومة الفرنسية في اي جزء على الاطلاق من قطرنا السوري، ونرفض مساعدة الحكومة الفرنسية، كما نرفض أن يكون لها دور في قطرنا تحت أي ظرف من الظروف».

(تقرير كينغ ـ كرين عن الشرق الادنى) نيويورك ـ ٢ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٢.

(٢) لم يذكر المؤلف إسم هذا الزعيم السوري المعارض.

الفصل الخامس

فلسطين: أسئلة من غير أجوبة

٥ الحاج أمين، عوني عبد الهادي وآخرون

لم يمض على إقامتي في القدس سوى يومين، ومع ذلك إنفجرت قنبلة أدت الى مصرع شخص واحد خارج أحد المتاجر العربية، كما إنفجرت قنبلتين أخريين وقتل ثلاثة أشخاص في مقهى يهودي. وقد حُذرت بعدم الخروج وحدي بعد العشاء. ولولا طبيعتي المتفائلة وعدم ثقتي في آراء الخبراء، لحملت حقائبي وغادرت القدس. وكان البعض قد سألني: «هل أنت متفائل بكسب ثقة أي شخص خلال أسابيع قليلة؟ لن يخبرك أحد بأي شيء هام باستثناء بعض التفاصيل التافهة الموجهة لأغراض الدعاية».

وكانت المعلومات المفيدة الوحيدة التي حصلت عليها قد جاءتني من صديق بريطاني له خبرة كبيرة في فلسطين. قال لي هذا الصديق: «لا يمكنك ببساطة أن تتوقع أن يستقبلك الناس دون شكوك مهما كانت شخصيتك ومهما كانت طبيعة الجهة التي ستتصل بها».

أجبته قائلا: «ولكنني لا أرغب الحديث في السياسة مع أي شخص».

هنا هز الصديق كتفيه قائلا: «لا تفكر كثيراً في السياسة. إن كل شيء في فلسطين عبارة عن سياسة. حتى إذا تحدثت عن عسل النحل، سيرى الناس مغزى سياسياً في حديثك».

□ «إنني محايد تماماً، ولست منحازاً لأية جهة.

■ «كلنا نقول ذلك عندما نأتي الى فلسطين، حتى المندوب السامي البريطاني نفسه قال ذلك في البداية. ولكن بعد مرور فترة قصيرة تنمو لدينا مشاعر الانحياز والكراهية، ولكن لسوء الحظ لا يدرك كثيرون منا أن لديهم هذه المشاعر أصلاً. وحتى إذا نجحت في الحفاظ على حيادك، لن تنجو من الاتهام بأنك منحاز لجهة أو لأخرى».

● الحاج أمين الحسيني

قمت بزيارة المفتي الحاج أمين الحسيني. وهو ليس مفتي فلسطين الأكبر كما تدعوه معظم الصحف الأجنبية، بل مجرد مفتي القدس. وهو أيضاً أبرز شخصية فلسطينية لعدة أسباب، من أهمها أن العرب الفلسطينيين لا يستطيعون القيام بأي عمل سياسي دون موافقته. وتحت تصرف المفتي قدر كبير من المال كما يدير كافة المؤسسات الاسلامية في فلسطين ويمتلك سلطة تعيين جميع القضاة الشرعيين. وكانت الجهة التي ساعدتني في الاعداد لزيارة فلسطين قد ذكرت لي أنه من غير المؤكد أن تتمكن من ترتيب مقابلة مع المفتي. ومع ذلك إختار القدر أن يوفر لي هذه الفرصة خلال زيارتي الأخيرة لجدة.

إستيقظت في ساعة مبكرة قبل شروق الشمس صباح أحد الأيام على أصوات في الغرفة المجاورة لغرفتي في الفندق الذي كنت أسكنه في جدة. وكانت هذه أصوات صلاة الفجر. ولكن بدا أن هناك عدداً كبيراً من الأشخاص في تلك الحجرة، كانت أصواتهم مرتفعة الى درجة أنه كان من الصعب تصور أنهم رفقاء الحاج الجزائري العجوز وزوجته اللذين كانا يقطنان تلك الغرفة خلال الأيام الأولى من إقامتي في جدة.

وكان لكل طابق في هذا الفندق غرفة طعام خاصة به، وعندما توجهت لتناول الافطار في الساعة السابعة والنصف وجدت أربعة رجال جالسين حول المائدة. وكان إثنان منهم عملاقين، ولم ينطقا بكلمة طوال فترة تناول الطعام. وكان أحد الاثنين الآخرين رجلاً سميناً داكن البشرة وملامحه شرقية، أما الآخر فكان رجلاً في اوائل الأربعينات من عمره، تسترعي ملامحه الانتباه في أي مكان. وكانت بشرة هذا الرجل بيضاء، ولحيته شقراء ومشذبة. وكانت عمامته كبيرة الحجم ملفوفة بعناية بصورة تدل على إرتفاع مقامه في العالم الاسلامي. ولم نتبادل سوى تحية الصباح.

وفي وقت لاحق من ذلك اليوم توجهت لزيارة صديقي الحاج عبد الله علي رضا، وهو تاجر ووكيل ملاحي من الحجاز يلعب دوراً كبيراً في ترتيب عمليات الحج، وكنت قد تمتعت بكرم ضيافته أكثر من مرة . وكان للحاج عبد الله علي رضا لحية بيضاء وإبتسامة عذبة. وهو من أطيب الرجال الذين قادني حسن حظي لمقابلتهم. وكان مكتبه نقطة لقاء معظم الحجاج

البارزين القاصدين مكة المكرمة أو في طريق عودتهم منها.

وفي ذلك الصباح لم يكن هناك سوى زائرين اثنين في مكتب الحاج عبد الله علي رضا. وهما الشخصان اللذان رأيتهما أثناء تناول طعام الافطار.

وقال الحاج عبد الله علي رضا وهو يقودني الى الرجل ذي اللحية الشقراء: «أود أن أقدم لك سماحة مفتي القدس الحاج أمين الحسيني». ونهض المفتي واقفاً وحياني بابتسامة وببريق في عينيه، وكأن كلا منا يعرف الآخر منذ زمن طويل.

وتقابلنا مرة أخرى في اليوم التالي على مائدة الافطار في الفندق، وقد سررت بصحبته، برغم أنه لا يتكلم الانكليزية ولا يعرف سوى عدة كلمات من الفرنسية. وقد تأثرت بمظهره الصبوح ووجهة المضيء حتى في الساعة السابعة والنصف صباحا وهو لا يرتدي ملابسه الكاملة (وكنا نشترك في غرفة الطعام الواحدة وفي الحمام الواحد أيضاً).

وفي آخر لقاء لنا في جدة دعاني الحاج أمين الحسيني بحرارة لزيارته لدى وصولي الى فلسطين.

●●●

عندما دخلت غرفة مكتب المفتي في الطابق العلوي من مبنى المجلس الاسلامي الأعلى، حياني وذراعاه ممدودتان للأمام لاستقبالي قائلا بالانكليزية: «مرحباً بك في القدس».

ويطل مكتب المفتي على منطقة المسجد الأقصى، وتستطيع أن تنظر من نوافذه مباشرة إلى الحرم الشريف والقبة الأموية الرائعة المعروفة باسم قبة الصخرة. وبرغم أن فن المعمار في القدس نفسها يبعث على خيبة الأمل، فإن الحرم الشريف واحد من أجمل نماذج التركيب المعماري الطبيعي.

ويتسم مبنى المجلس الاسلامي الأعلى بالارتفاع وبالتقشف الكبير في أثاثه. وكان المدخل والسلالم والبهو الداخلي مليئة كلها بالحجاب والحراس. كما كان هناك عدد من الزوار ـ معظمهم من رجال الدين ـ واقفين أو جالسين في أماكن مختلفة. وكان الحديث يدور همساً والجو متوتر بصورة تدل على أن هذا المبنى ليس مجرد مقر زعيم ديني.

يقضي المفتي معظم وقته في إجتماعات إدارية وسياسية ويستقبل زواراً من كافة أنحاء العالم الاسلامي. وتأتي وفود من العراق وسورية والهند وبقية أنحاء فلسطين والدول الاسلامية، الى هذا المبنى للتفاوض مع مفتي القدس أو للقيام بزيارة مجاملة له. وهناك أيضا زوار بريطانيون واميركيون، بعضهم يقوم بزيارة عمل، والبعض الآخر اجتذبته شهرة المفتي الواسعة.

ويستقبل المفتي معظم زواره في غرفة استقبال واسعة في الطابق الأول، ولكن نظراً لمعرفتي السابقة به سمح لي بصعود الدرج الى الطابق العلوي وزيارة المفتي في مكتبه الخاص. وكان هذا المكتب عبارة عن غرفة صغيرة مفروشة بأثاث أوروبي حديث وبسيط.

ولم تتعد المناقشة بيننا حدود الأمور السطحية. وكان إهتمام المفتي منصباً معظم الوقت الى الصورة التي التقطتها له في الحجاز وأحضرتها معي. ويصر المفتي باستمرار على أن تكون الاسئلة الموجهة إليه مكتوبة سلفاً وأن يجيب عليها تحريرياً، لأنه تعرض في الماضي لتجارب مريرة مع زوار شوّهوا ما صرح به. وكنت قد أحضرت معي نص الاسئلة. وأبدى المفتي استعداده للاجابة عليها. وقال لي أن هذه الأسئلة أثارت إهتمامه الى حد كبير، وأنه مما يبعث على الراحة أنه سيتعامل هذه المرة مع موضوعات غير سياسية. ولكن لسوء الحظ لم تصلني هذه الاجابات قط. وقد بدا ان من المستحيل الحصول على تلك الاجابات التي وعد بها برغم أنني أرسلت إليه في تاريخ لاحق نسختين أخريين من تلك الاسئلة.

وعندما جلست أمام الحاج أمين الحسيني وجدته أنيقاً في عباءته السوداء الرائعة ومجاملاً، وحسن المظهر بصورة لا تتفق مع وضعه كزعيم ديني، وناعم الكلام بصورة لا يتمتع بها سوى الديبلوماسيون المحترفون. ولذلك كان من الصعب أن أصدق أن هذا الرجل يمثل المحور الرئيسي الذي دارت حوله شؤون السياسة الفلسطينية على مدى السنوات العشر الماضية. ووجدت أيضا أن من الصعب التصديق أنه كان يمكن حل الخلافات بين العرب واليهود منذ عدة سنوات لولا وجوده، وأن عدداً كبيراً من الناس يعتبرونه واحداً من أخطر الزعماء السياسيين في عصرنا الحالي.

وكان مظهره العام يدل على الأناقة المتعمدة التي ليس فيها الكثير من

العفوية. وبدا على المفتي أنه يعي تماماً ما يفعله. وكانت إبتسامته تحمل في ثناياها دماثة رجل البلاط المثالي، وكأن الديبلوماسية وليس التعاطف الطبيعي هي السبب في البريق الماثل في عينيه الزرقاوين الرماديتين.

وظللت أتساءل: ما هي حقيقة هذا الرجل؟ ان الذين يعرفونه جيداً معجبون به، وكثيرون ممن لا يعرفونه يكرهونه. ومع ذلك يعترف أصدقاؤه أنفسهم بعدم تمكنهم من معرفة مدى تأثير طموحاته الفردية على سلوكه السياسي. ويعترف الذين يكرهونه بأنه ليس هناك كثيرون يتفوقون عليه في سحر الشخصية.

ويسود بين المراقبين المطلعين الراي القائل بأن المفتي مهتم حقيقة بالمسائل الدينية، ولكن لا يعرف عنها الكثير الى درجة تسمح له بأن يكون زعيما دينياً. ويعتقد هؤلاء المراقبون أيضاً ان المفتي رجل سياسي بالدرجة الأولى، وإن ثقافته سياسية. وأكدوا لي أنه لن يتمكن على الاطلاق من إعطائي إجابات شافية على الأسئلة المتصلة بالفلسفة الاسلامية. ولا يبدي المفتي حماساً تجاه الوحدة العربية حالياً لأن من المفترض أن يكون إهتمامه الرئيسي منصباً الى الحصول على استقلال فلسطين حتى يستطيع القيام بدور الزعامة فيها.

ويدعي البعض أن المستوى الثقافي للمفتي متدن عن معظم الزعماء العرب الآخرين. ومع ذلك يتمتع المفتي بقدرة على الصمود. وقد أبدى أيضاً قدرة على الصبر خلال المنازعات السياسية، كما أنه يتمتع بالهدوء وثبات الأعصاب والشجاعة الأدبية ووضوح الهدف، مما جعله الزعيم السياسي الطبيعي لشعبه. وإذا لم يكن المفتي رجلاً يتمتع بقدر كبير من الذكاء، فإنه حصيف بدرجة كافية تجعله يعتمد على مستشارين يعرفون شؤون الدنيا بدرجة أكبر بكثير من معرفته لها. ويشتهر المفتي بأنه يستمع إلى آراء واحد أو اثنين من المستشارين المسيحيين السوريين الذين يحتفظون بإستمرار بموقعهم البعيد عن الأضواء، ولكنهم يعرفون الهدف النهائي الذي يريدون الوصول إليه أكثر مما يعرفه المفتي نفسه. ولا يستطيع أقرب أصدقائه إليه أن يحدد ما إذا كان المفتي هو الذي يقود الآخرين أم أن هناك من يقوده. ولست أشك في أنه يتمتع بقدر من الحكمة يسمح له بتبين الدرجة التي يجب أن يذهب إليها في الثقة بمستشاريه، على الرغم من كفاءة هؤلاء المستشارين.

وعندما تصافحنا للمرة الأخيرة كنت أعي جيداً أنه من غير المستحب اطلاقاً أن يشعر المرء بأن المفتي عدو له، وأن المرء يشعر بسرور بالغ بأن يكون صديقه. إن الحاج أمين الحسيني ليس من السياسيين الجدد أو من الزعماء الدينيين التقليديين. إنه مثال كامل لرجال عصر النهضة، وللرجل الذي يعتبر أن الحياة مجرد مغامرة، فلا يستخدم المبادىء إلا اذا كانت تتفق مع الوصول الى أهدافه. وهو يستطيع الظهور تارة بمظهر التقي والمتدين الحقيقي، وتارة بمظهر السياسي الشرقي الساخر. وهو يتسم بالدماثة واللطف، كما أن لديه القدرة على الحسم وعلى إصدار إشارة بإصبعه تعتبر بمثابة حكم الاعدام على الأشخاص الذين يقفون في طريقه. وكان على هذا المفتي ان يرتدي ثياباً من المخمل والحرير المطرز، وأن يحمل خنجراً ذا مقبض مزين في وسطه، وأن يضع في أصابعه خواتم ثقيلة تحمل معاني الغموض مثلما كان يفعل الأمراء الايطاليون المتآمرون في العصور الوسطى، فالملابس المتقشفة لرجال الدين كانت تبدو مثل الرداء التنكري على الحاج أمين الحسيني.

ولم أشعر بدهشة عندما قيل لي أن المفتي يخفي بين طيات ثيابه الدينية مسدساً باستمرار. وتذكرت الحارس النوبي الخاص الذي لا يتحدث على الاطلاق ويرتدي ملابس كاكية اللون ويحمل مسدساً كبيراً ويقف خارج الحجرة في الممر الضيق. وتذكرت أيضاً حارساً آخر يرتدي ملابس مشابهة ويحمل سلاحاً مشابهاً ويجلس على مقعد عند المدخل الى هذا الممر. كما تذكرت العدد الكبير من الحراس الذين مررت بهم على الدرج، والعملاقين الصامتين اللذين شاهدتهما على مائدة الافطار في جدة واللذين شاركا المفتي في غرفة نومه وفي طعام افطاره وهو في طريقه الى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج.

● عوني عبد الهادي

قمت هذا الصباح بزيارة عوني بك عبد الهادي، الذي يعتبر أكثر الزعماء العرب تطرفاً و «وزير خارجية» المجلس الاسلامي الأعلى. وكان عوني عبد الهادي سكرتيراً للملك فيصل - الذي أصبح ملكا للعراق فيما بعد - وممثله أمام مؤتمر فيرساي عام ١٩١٩. ويقوم عوني بك عادة بدور

المتحـدث الرئيسي باسم العـرب في تعـاملهم مع هيئات عليا مثل لجنة الانتداب في جنيف أو اللجنة الملكية البريطانية. ووظيفته الأصلية هي المحاماة، وهو متحدث جيد للغاية.

ومن ناحية المظهر الخارجي يتناقض عوني بك تناقضاً تاماً مع المفتي. فهـو هزيل الجسم وغير مرتب الهندام ويرتدي ملابس غربية لا يتفق مقاسها مع جسمه. ويتصف عوني عبد الهادي بجفون ثقيلة تجعله يبدو متعباً باستمرار، كما أنه يبدو أيضاً أكبر سناً مما هو عليه في الحقيقة بسبب فمه المتهدل وشواربه غير المشذبة التي خطها الشيب.

المظهر الخارجي يعتبر أسوأ ما في عوني بك. فلا بد أن يكون وراء هذا المظهر قلب مليء بالحرارة ومشاعر أسمى من مشاعر التطرف التي يحملها.

ويستجيب عوني بك بحماس للمشاعر الدينية. وعندما سألته عما إذا كان من الأصـوب وضع الكراهية والتعصب السياسي جانباً والاعتماد بصورة أكبر على القوة الناشئة عن الإيمان، أجاب على الفور قائلاً: «هذا أفضـل بالطبـع. إنني أقول باستمرار أن سياسيينا لا يتسمون لسوء الحـظ ببعـد النظر الى المستقبل ويسمحون لأحداث اليوم بأن تعمي أبصارهم. يجب أن يستعين هؤلاء السياسيون بالله تعالى والا يعتمدوا على أي شيء آخر على الاطلاق.»

وكان عوني بك يشدد على هذه الكلمات الأخيرة قبل أن يشعل سيجارة ثانية ويستطرد قائلاً: «إذا اعتمد هؤلاء السياسيون على الله سنحصل على حريتنا الوطنية لا محالة بصرف النظر عن عدد أعدائنا وعن مدى قوة البريطانيين. يجب علينا أن نتحلى بالصبر. ان الصبر مهم للغاية! وإنني أسـألك، ماذا يهم إذا إنتظرنا مدة خمسين عاماً أو مئة عام، إذا كنا سننال في النهاية استقلالنا؟ هل نكافح من أجل أنفسنا؟ كلا بالطبع. إننا نكافح ونعاني من أجل أبنائنا وأحفادنا. ما هي قيمة مئة سنة في حياة أمة!»

وبمجـرد أن تحـول الحديث مع عوني بك الى موضوعات الساعة، إتضح على الفور مدى الهوة التي تفصل بين حياته اليومية وما يؤمن به من معتقدات دينية. وقد بدا أن المعتقدات الروحية الجميلة اختفت على الفور واتضح مدى قوة مشاعر العداء التي يكنها للبريطانيين.

ومنذ وصولي الى القدس كنت أشعر بأن المسلك المعادي لليهود الذي يتبعه الزعماء العرب لا تتفوق عليه سوى مشاعرهم بالعداء للبريطانيين أو بالاحرى مطامحهم نحو الاستقلال. وهم يرغبون ـ مثلهم في ذلك مثل أشقائهم في سورية ـ في حكم ذاتي كامل، والبريطانيون يمثلون العقبة الرئيسية في طريق تحقيق ذلك.

وعند نهاية المناقشة تساءل عوني بك: «هل تعرف أن كثيرين منا لا يؤدون صلاة الجمعة في المسجد، وهي أهم صلاة لدينا. هل تعرف السبب في ذلك؟» وتوقف عن الحديث لبرهة بصورة درامية، ثم استطرد متحدثاً بنبرة أكثر عمقا عن ذي قبل، ونسي للمرة الأولى إشعال سيجارة جديدة: «هل تعرف السبب؟ لاننا نعتقد أن الله تعالى لن يقبل صلاتنا طالما أن الذي يحكم بلادنا ـ المندوب السامي ـ غير مسلم».

● ضياء الدين طباطبائي

لا يستطيع أي كاتب أن يتجاهل قواعد تكوين الشخصيات وتسلسل الأحداث بالصورة الصارخة التي تفترضها الحياة في بعض الأحيان. إن المفاهيم التقليدية كلها تشير إلى أن المفتي يجب ان يكون تجسيدا للشرق، ولكنه يبدو مثل أي شخص أوروبي أو رجل من رجال عصر النهضة لا ينتمي الى جنس أو عنصر بعينه. ومن الناحية الاخرى بدا لي أن أكثر الرجال شرقية في فلسطين هو ضياء الدين طباطبائي، أمين عام المؤتمر الاسلامي، الذي كان يبدو أكثرهم أوروبية. ولد طباطبائي في إيران، ولكنه يقضي مع أسرته معظم شهور السنة في الفيلا التي يملكها في سويسرا. وقد تلقى تعليمه في باريس، ويعرف أوروبا بصورة أفضل مما يعرفها أوروبيون كثيرون. وله مؤلفات عن الأدب الاوروبي ويتحدث الانكليزية والفرنسية. وهو لا يعيش في القدس في منزل عربي، ولكنه يسكن المنزول الديني النمساوي، حيث تقوم الراهبات الكاثوليكيات النمساويات بخدمته، وحيث ينطق كل حجر وكل تقليد بالعادات والثقافة الغربية. وبرغم مظهر عوني بك الشرقي، فقد بدا لي أقل شرقية من طباطبائي ذو النشأة الفارسية والثقافة العالمية.

وكان ضياء الدين طباطبائي قد بدأ الإهتمام بالشؤون الفلسطينية

قبل عدة أعوام، حيث أصبح واحداً من انشط الزعماء واكثرهم ثقافة في المعسكر العربي. ويقع مكتبه في وسط منطقة الحرم الشريف على مسافة عدة أمتار من المسجد الأقصى، ولكنه دعاني الى الشاي في مقر إقامته في المنزول النمساوي.

وقد كنت أتوقع أن أجد هذا الرجل الشرقي الثقافة والغربي التعليم، أكثـر تشدداً من المفتي وأكثر حكمة من عوني بك. وعندما إستقبلني طباطبائي عند أسفل الدرج القديم في المنزول، كان وجهه يبدو مثل وجوه الشعـراء الشرقيـين المحبـين للفنون والجمال. وكان نحيل الجسم وفي متوسط العمر. وجهه ينم عن الحزن، يعلوه شعر كثيف يتخلله الشيب مما جعله يبدو كرجل شرقي رومانسي وغريب في الوقت نفسه. واذا كانت صفة «فـارسي» تبعث في الذهن صورة الشعـر الصـوفي والحـدائق الجميلة والملذات الحسية العظيمة، فإن طباطبائي كان يبدو فارسياً تماماً.

وطلب مضيفي من الراهبـة التي دخلت الى الحجـرة أن تحضر لنا الشاي بالنعناع. وكان يفتح في الوقت ذاته عدة صناديق يبدو أنها وصلت لتوها من ايران تحتوي على حلويات فارسية رائعة منها «نوغا» مخلوطة بماء الورد وحبات مشمش صغيرة حلوة المذاق محشوة بمكسرات، وفستق مغطى بالسكر، وانواع اخرى لها روائح الزهور. وأصر طباطبائي على أن أتذوق كل نوع من هذه الحلوى.

وبـدت أوضـاع مضيفي بحنجـرته وصوته الموسيقي والشاي غير العادي الذي قدمه لي، وكأنها صورة ابدع في رسمها كاتب قصصي مبدع، ووجدت من الصعب أن أضعها في اطار الزعامات العربية التقليدية في فلسطين.

ولم يختلف حديث طباطبائي كثيراً عما قاله العرب الآخرون الذين استمعت إليهم خلال الأيام القليلة الماضية. ومع ذلك كان غامضا الى حد ما في حديثه. وشكا من البريطانيين وإتسم حديثه بالمرارة عندما ذكرنا الموضوعات السياسية، ورد بحماس بالغ عندما تناول الحديث المثاليات. وكان طباطبائي يتسم بالتشدد بشأن اليهود وكانت لديه ـ مثله في ذلك مثل معظم المسلمين العرب ـ أسبابه الخاصة للشعور بالكراهية نحوهم.

قال طباطبائي، وهو يرفع بيده خصلة من الشعر الرمادي سقطت على احـدى عينيـه: «إن التفـاهم مع اليهود مستحيل تماماً. لماذا؟ لأنهم

يهبطون على فلسطين وكأنها كانت أرضهم بإستمرار، بدلاً من أن يأتوا الى هنا بتواضع كلاجئين، لأن معظمهم من اللاجئين. لقد كنا سنستقبلهم بأذرع مفتوحة إذا وصلوا الى هنا بالروح التي ينتظرها المرء من شعب مضطهد. إنني فارسي وعشت معظم حياتي في الغرب وبذلك فإنني حر من كافة أنواع التعصب التي لا بد أن يعاني منها كثيرون من العرب. ومع ذلك فأنا نفسي أشعر بالعداء عندما أنظر الى غرور اليهود، وعندما أرى كيف أن تل أبيب، البلدة التي تم بناؤها على أرض عربية، ليس بها علامة طريق واحدة ولا شارع واحد ولا كلمة واحدة باللغة العربية. إن أي شعب لديه أقل درجة من مشاعر اللياقة او حتى السلوك الاجتماعي كان يجب ان يفعل شيئاً للاعتراف بوجود الشعب الذي كان موجوداً هنا قبله. ولكن اليهود لا يفعلون ذلك. إنهم يقولون: إننا لا نهتم بالسلوك القويم، إننا نبني وطناً قومياً. ومع ذلك يبدي العرب إهتماماً أكبر بالسلوك اليهودي الذي عانوا منه أكثر من إهتمامهم بالوطن القومي الذي لا يثير إهتمامهم على الاطلاق. ويواصل اليهود التصرف وكأن فلسطين كانت ملكهم وكأن العرب من الغوغاء القذرين غير المتعلمين. وطالما إستمر اليهود في هذه التصرفات لن يكون هناك أي تفاهم بين العرب واليهود».

إنني لم أعرف طباطبائي بصورة وثيقة ولذلك لا أستطيع الحكم على ما إذا كان ما رأيته منه يعبر عن شخصيته الحقيقية أو مجرد قناع. إن هناك شيئاً في طباطبائي يجعلني أتمنى أن أعرفه جيدا. وخلال الساعتين القصيرتين التي قضيتهما معه أدركت أن بداخله جوهراً طيباً غطت عليه المرارة كما يحدث بالنسبة لمعظم الذين أصابتهم لوثة السياسة.

● الشيخ إسماعيل الحافظ

سنحت لي للمرة الأولى مناقشة مشكلات البلاد من وجهة النظر الدينية مع شخصية عربية بارزة. وكنت قد بذلت محاولة لهذا الغرض مع المفتي الحاج أمين الحسيني الذي لم يسمح قط للحديث بيننا بأن يتعدى الاجتماعيات. وكان العرب الآخرون يتحمسون بسرعة ثم يفتر حماسهم أيضاً بالسرعة نفسها بمجرد ذكر موضوعات الساعة. ولكنني زرت اليوم الشيخ إسماعيل أفندي الحافظ[1] رئيس محكمة الاستئناف

الشرعيــة وهي أعلى سلطة قضائية للمسلمين في فلسطين. ويتمتع هذا الشيخ الجليل بثقافة ممتازة وبشخصية ساحرة.

ومــرة أخــرى دلت وجهــات نظره، مثلمــا في ذلك مثــل وجهات نظر الشخصيــات العربية البارزة الأخرى، على أن رغبة الشرق الادنى في الاستقــلال الكامل تجعل العربي الفلسطيني معادياً للبريطانيين بقدر عدائــه لليهــود. وقــد بحثنا الموقف الديني بين المسلمين، وقال الشيخ إسماعيل الحافظ: «إن أسلوب التعليم الصحيح هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يوقف الانحســار الديني الحالي». أضاف على الفور أنه: «لا يمكن توفير مثل هذا التعليم طالما إستمرت السيطرة الاجنبية علينا. إننا نواصــل تقــديم المقترحات الى السلطات البريطانية من أجل مزيد من الدروس الدينية، ولكن لجنة التعليم لا تسمح بتنفيذ ذلك».

وسألت الشيخ إسماعيل الحافظ عن الاسلوب الذي يمكن إتخاذه من أجل إصلاح الحياة الدينية في فلسطين، وكان مطلبه الأول هو التعاون بين الاســلام والمسيحيــة. ومع ذلك كانت معظم تصريحاته تصدر وفي وسطها تعبيرات مثل: «لو كنا احراراً» أو «لا نستطيع تحقيق أي شيء طالما إستمــرت سيــطرة الأجانب»، وعبارات أخرى مشابهة. وعندما تحدث أيضــا عن ضرورة مقــاومة الالحاد، لم يشر قط الى وجود الالحاد بين صفوف المسلمين أو المسيحيين، بل بين صفوف اليهود وحدهم.

وقال الشيخ إسماعيل أفندي ما سبق أن ذكره العديد من العرب ذوي الميول الدينية من أنه ليست لديهم أي مشاعر عداء تجاه اليهود المتدينين الذين كانوا يعيشون في فلسطين قبل وقت طويل من ظهور الصهيونية.

وقال الشيخ إسماعيل الحافظ أيضاً أنه أصبح معادياً لليهود لسبب واحد يتمثل في الالحاد والشيوعية اللذين ينتشران بين صفوف اليهود الذين دخلوا فلسطين خلال العشرين عاماً الأخيرة.

هوامش

(١) الشيخ إسماعيل الحافظ، لبناني من طرابلس هو والد الدكتور أمين الحافظ، رئيس وزراء لبنان الأسبق، والرئيس الحالي للجنة الشؤون الخارجية في مجلس النواب اللبناني.

الفصل السادس

العراق: وحدة فيدرالية من المحيط الى الخليج

٦ ناجي السويدي، سعيد شهرستاني وآخرون

سافرت الى بغداد عبر الصحراء السورية في باص «نيرن» الصحراوي (أكبر عربة متحركة في العالم)، وهو مجهز بجميع وسائل الراحة التي يمكن أن يوفرها العصر التقني بما بلغه من التقدم، من مياه مثلجة جارية، وطعام وشاي، ومقاعد يمكن تعديل وضعها بسهولة لتنام بينما السيارة ذات العشرين إطاراً تنهب الطريق مسرعة أثناء الليل. كانت الرحلة طويلة، اذ إمتدت نحو ستمائة ميل عبر الصحراء دون طريق ممهدة أو بلدان أو قرى أو أي شيء آخر يلفت الانتباه. ومع ذلك ظهر على الركاب العشرين، وكان بينهم عدد من الاميركيين والألمان والايطاليين، وكأنهم يشعرون بالأمان بين ايدي السائق البريطاني الممتاز ومساعده السوري.

وكان باص «نيرن» الذي نستقله واحداً من المنجزات الرائعة للعبقرية الميكانيكية الاميركية. فقد كانت النوافذ والأبواب مغلقة بإحكام شديد يحول دون تسرب الرمال، وكان الباص يتحرك بسرعة خمسين ميلاً في الساعة وكأننا نسافر فوق حلبة سباق عصري. فقد واجهتنا عاصفة رملية طوال الليل أثارت الذعر بين الركاب. ومع انبلاج الفجر وصلنا الى الحدود العراقية بسلام وقد انهكنا التعب، فتوقفنا في مطعم الحدود وكان يعج بالناس. وتناولنا في الخامسة صباحاً إفطاراً من الخبز والمربى والشاي الساخن، بينما كان العراقيون يتناولون إفطاراً من الخبز والزيتون وزجاجات لا تحصى من الجعة.

وكان في أذهان معظم الغربيين صورة للعراق عبر عنها بإستمرار الملك الراحل فيصل الذي تجسدت فيه صفات الملك على أكمل وجه. وكان المرء يفترض بطبيعة الحال، أنه سيجد بعضاً من ملامح الملك فيصل في

رعاياه، وهو إفتراض قد يكون فيه الكثير من السذاجة. فقد كانت وجوه الناس عند الحدود مناقضة للصورة التي كنت أحملها في مخيلتي عن الملك. وتذكرت فجأة أن الملك فيصل لم يكن عراقياً بل غريبا عن العراق، وكان أحد أبناء الملك حسين شريف مكة، وأنه جاء إلى العراق من الحجاز بعد أن جلس على عرش سورية لفترة قصيرة وأنه كان في الحقيقة غريباً عن العراق.

ولم أكن لحسن الحظ قد كونت أفكاراً مسبقة عن المدينة أو الناس، ولهذا لم أشعر بالانبهار أو بخيبة الأمل عندما رأيت بغداد لأول مرة. فقد كانت السماء تمطر والشوارع موحلة وزلقة، وكان يبدو على نهر دجلة وهو ينساب ببطء وسط بغداد شيء من وقار النيل في القاهرة. وكان النهر واسعاً مستقيماً، وبرز جماله عندما هبط الليل وطمست العتمة لون مياهه العكرة، ولم تعد حدوده المنبسطة تبدو كالحة، وغدت البيوت على جانبيه وكأنها قصور مسحورة لا فنادق ومكاتب ومحلات حديثة رخيصة البناء.

وكان جمال دجلة في وضح النهار يكمن في رسمه وإرتباطه بماضيه الآشوري والبابلي، وبأيام الخلافة العباسية، وفي الحنين الى الماضي، الرابض في ثناياه في سكينة أبدية، وفي ذكريات المرء عن القرى والحدائق التي كانت تسبغ الجمال على ضفافه خارج المدينة، وعن القرويين الذين احتفظوا ببعض خصالهم الأصيلة التي لم تعد موجودة في أبناء وطنهم من أهل بغداد.

وكان العراق أول دول الوصاية التي خرجت من الانتداب الى الاستقلال نتيجة للحرب العالمية الأولى، والتي هيأته له الدولة الوصية بريطانيا. وتم قبول العراق في نهاية الأمر كدولة في عصبة الأمم على قدم المساواة مع الدول الأخرى. وقد حصل العراق على إستقلاله قبل مصر، مما عزز شعوره بأنه أعرق الدول الاسلامية الحديثة، وإن حقول النفط الموجودة في شماله وتربته الشديدة الخصوبة يمنحانه وضعاً إقتصادياً متميزاً للغاية في الشرق الأدنى[1].

● يوسف عز الدين إبراهيم

كان يوسف عز الدين إبراهيم وزير المعارف. وعدد من كبار رجال التعليم العراقيين الذين زرتهم يجمعون بين العقلانية والوطنية. وكانوا

مع وطنيتهم هذه يبدون إهتماماً شديداً بالطرق الغربية للتعليم العلمي. وكان يوسف عز الدين إبراهيم أستاذاً جامعياً في دار المعلمين العالية في بغداد ومديراً في وزارة المعارف، قبل أن يصبح وزيراً.

وقال لي وزير المعارف: «لم نعد بحاجة الى دين أصحاب العمائم». وكان يشير بذلك إلى رجال الدين التقليديين الذين كانوا المسؤولين الرئيسيين عن التعليم الاسلامي. وأضاف الوزير العراقي «إن الدين الذي نحتاج اليه في العراق هو الدين الذي يغرس الوعي القومي والتنوير وروح الخدمة الاجتماعية. وإن تأثير أصحاب العمائم في الوقت الحاضر هو أكبر من تأثيرنا، وحيث أننا لا نستطيع العودة إلى الدين في صورته الجامدة، فإن على الدولة أن تأخذ على عاتقها هذا الواجب. وهذه مهمة صعبة للغاية. وهكذا فإن علينا أن نركز إهتمامنا أولاً على أن نعد النوعية الصحيحة من المدرسين، ممن يتصفون بالفضيلة والأخلاق الوطنية».

وأضاف وزير المعارف قائلاً: «هناك أيضاً الجانب السياسي للتعليم، لأن التعليم هو الوسيلة الوحيدة التي يمكن من خلالها أن نوحد بين جميع العناصر المختلفة التي يتألف منها العراق: الشيعة والسنة والأكراد والأقليات القومية الأخرى. وإن توحيد لغتنا ونظامنا التعليمي هو الهدف العاجل الذي نسعى إليه».

وإستطرد يوسف عز الدين إبراهيم قائلاً: «ونحن لا نستطيع بمفردنا أن نتطور إلى دولة متحضرة حقاً. فالحضارة تتطلب منا بناء الطرقات وأنظمة الري، ومستوى صحياً جيداً وان نقوم بوظائفنا في جو من الأمن والسلام. ونحن لا نستطيع أن نحقق أيا من هذه الجوانب إذا كنا نعيش في خوف من أن أحد جيراننا الأقوياء قد يبتعلنا في أي لحظة».

وختم وزير المعارف العراقية حديثه بقوله: «ولربما تكون دولة أوروبية صغيرة مثل هولندا وسويسرا آمنة حتى دون الدخول في وحدة مع دول أخرى، لأن هناك دولاً أخرى تضمن حيادها. ولكننا، ونحن على بعد آلاف الأميال من القوى العالمية الكبرى، لا نستطيع الاعتماد على أي ضمانات مجردة من هذا القبيل. ولكننا نستطيع الاعتماد على إتحاد فيديرالي يضم جميع الدول العربية والذي يتطلب منا أن نغرس مفهوم العروبة والوحدة العربية في نفوس شبابنا».

● الشيخ سعيد شهرستاني

رأيت في مقاهي ومحلات تجارية متعددة في بغداد والموصل وأماكن أخرى صوراً لموسوليني وهتلر بل وحتى لينين، فهل من المحتمل أن تؤثر مذاهب الغرب وايديولوجياته الجديدة على مستقبل الشرق الأدنى؟ وهل يتطلع العراقيون حقاً الى تحقيق الوحدة العربية؟

تحدثت إلى كثير من الناس عن هذه المسائل، ولم يعطني أي منهم رأياً شافياً، أكثر من الشيخ المسن سعيد شهرستاني الفيلسوف الضرير والمفكر الذي كان يشتهر بأنه أكثر أهل العراق علما. كان الشيخ سعيد شهرستاني رجلاً وقور المنظر، ذو لحية بيضاء، يتحدث بصوت منخفض منغم، ولشخصيته جاذبية طبيعية.

قال لي الشيخ سعيد، بعد أن تبادلنا كلمات المجاملة التقليدية وبعد أن أحضر أحد أحفاده صينيتين على أحدهما قهوة وعلى الأخرى عصير البرتقال: «إن موقف العرب من الحركات السياسية كالنازية يصبح أكثر وضوحا بالنسبة الى الذين يعرفون القرآن وروح الاسلام. فالاسلام دين أخاء بين جميع البشر. ويقول القرآن الكريم بوضوح تام إن محمدا بعث بالحق للإنسانية جمعاء وليس للعرب وحدهم أو هذا الجنس أو ذاك. ومن الواضح أيضاً أن الاسلام لا يفرق بين الأجناس أو الأمم المختلفة وأن النظرية التي تقول بتفوق عنصر بشري ما هي الا نظرية غريبة تماماً عن الروح العربية».

وأضـاف الشيخ سعيد: «وغريب عن هذه الروح العربية أيضاً أن تعلو الدولة على حساب الفرد. ذلك لأن كرامة وأهمية الفرد هي من بين العوامل الأساسية الموجهة لحياتنا القومية والاجتماعية. إننا نمقت فكرة تأليه الدولة. وحيث أننا لا نعرف الفروق العرقية أو الاجتماعية يحق لنا أن نقـول أن ديننـا يوفـر أسـاسـاً للديموقراطية الكاملة. إننا جميعاً متساوون أمام الله ولكننا في الوقت نفسه نؤمن جميعاً كعرب بأهمية الفرد».

وتابع الشيخ الضرير كلامه: «وما يصدق على النازية يصدق أيضاً على الشيوعية، ولا أظن أن الشيوعية ستجد الفرصة في الدول العربية على الاطلاق. فالمثـل الاسـلامية العليا المتعلقة بالفرد والأسرة والملكية

الخاصة والوراثة قد أصبحت جزءاً لا يتجزأ من حياتنا بما لا يدع مجالاً لدخول الشيوعية. ومع ذلك فإن الشيوعية أقرب بكثير إلى تعاليم القرآن من النازية».

وقاطعت الشيخ سعيد: «ولكنني قابلت عدداً كبيراً من العرب الذين كانوا متحمسين للنازية».

رد الشيخ سعيد: «إن ذلك يرجع لأسباب سياسية بحتة . إن معظم العرب يعجبون بالشخصيات القوية. ولقد قيل لي أن صور هتلر وستالين وموسوليني معلقة على جدران الكثير من المقاهي. ولكن هذه صور شخصيات قوية وستجد الى جانبها أيضاً صور الملك إبن سعود وأتاتورك، فهما أيضاً من الشخصيات القوية. ومعظم ما يعرفه العربي العادي عن هتلر هو أنه يكره الفرنسيين. وإن التجارب التي مر بها أشقاؤنا في سورية جعلت كل العرب يكرهون الفرنسيين، وبالتالي اعتبار هتلر حليفاً بشكل ما. وستجد بوجه عام أن من يعجبون بهتلر من العرب هم فقط أولئك الذين يجهلون القرآن الكريم ولا يعيشون طبقاً لتعاليمه».

● ناجي الأصيل

كان وزير الخارجية ناجي بك الأصيل مثل كثير من الشخصيات القيادية في العراق شاباً ممتلئاً بالحماس الذي هو بمثابة ماء الحياة لأي دولة ناشئة(٢). ولكن الاجهاد الذي كان يبدو على منظره، وشحوب لونه، كانا ينبئان عن الثمن الذي يتطلبه منصب وزارة الخارجية من شاغليه.

قال لي وزير الخارجية: «ليس من عادتي أن أتحدث عن معتقداتي الشخصية ولا أفعل ذلك بالتأكيد عندما أعرف أن كلماتي ربما تنشر ذات يوم. ولكن هذه الأمور لا بد وأن يتحدث عنها حتى من يشغلون مواقع رسمية. وفي رأيي أن الفوضى الشاملة للأمور وخاصة في أوروبا ترجع الى تخلي الانسان عن روح الدين. ولست أعني بطبيعة الحال الكنائس، والمواظبة على أداء العبادات، وإنما أعني العقيدة الدينية الاساسية التي لا أظن أن أي شخص يستطيع العيش بدونها. وكما ترى فإنني رجل عصري من كافة النواحي. فأنا أمثل من الناحية السياسية وجهة النظر العصرية المستنيرة التي أصبحت القاعدة الموجهة لكل سياستنا

الخارجية. وأول أسس هذه القاعدة هو التحالف الوثيق مع بريطانيا العظمى التي تعد أعظم حليفة لنا. ويأتي بعد ذلك التعاون مع جيراننا بغض النظر عن كونهم عرباً أو أتراكاً أو إيرانيين. وإنني رجل واقعي لا خيالي ولذلك سأمتنع عن مناقشة فكرة العروبة والوحدة العربية هذا الحلم الجميل الذي يراود معظم العرب. ولكنني مع كل نظرتي الواقعية الى المطالب السياسية لعصرنا، أقول أن المادية والافتقار الى روح الدين وأصالته من شأنهما ان يؤديا بنا الى تأليه الكائن البشري الأناني. وبالتالي الى تأليه الدولة بنفس القدر، الأمر الذي لا بد وأن ينتهي الى حالة من الفوضى الشاملة.»

وقال ناجي الاصيل: «بطبيعة الحال من الصعب جداً على قلة من الأفراد أن يبثوا الروح الدينية الحقيقية في حياة الناس، ولكن لا بد للمرء من أن يحاول، لأن المثل الأخلاقي الذي يضربه الفرد هو الخطوة الأولى. ولا بد في مرحلة تالية من جعل نظام التعليم بأكمله مشبعاً بهذه الروح».

وفي تلك اللحظة، دخل رئيس الوزراء وانتهى الحديث.

● ناجي السويدي

لم أجد في أي من البلاد التي زرتها آراء محددة عن مسألة العروبة والوحدة العربية، كتلك التي وجدتها في العراق. وكانت آراء ناجي الأصيل وزير الخارجية (بما تضمنتها من شكوك) هي الاستثناء الوحيد. وربما منعه وضعه الرسمي من مناقشة اتجاهات ما زالت بعيدة عن مجال السياسة العملية. ولكن محادثاتي مع شخصيات قيادية أخرى أوضحت لي أن فكرة القومية العربية أبعد ما تكون عن مجرد نظرية سياسية.

ولم أكن لأقتنع بوضوح هذا الموقف إلا عندما حظيت بمقابلة ناجي باشا السويدي وهو أحد الشخصيات القومية البارزة في السياسة العراقية[٣]. عندما التقيت به كان عضواً في مجلس الأعيان العراقي. وقد تلقى ناجي السويدي تعليمه في تركيا قبيل الحرب كما هو حال معظم المثقفين العرب.

أدركت بعد خمس دقائق فقط من حديثي مع ناجي باشا السويدي

أنه رجل على قدر عظيم من الدراية بالشؤون السياسية، حتى ولو لم أكن أعرف المناصب البارزة التي تقلدها من قبل. ورغم أنه لم يكن موافقاً على الطبيعة الدكتاتورية للحكومة[٤]، إلا أنه لم يدل مطلقاً بملاحظة تنطوي على إنتقاد ولم يسمح لمناقشتنا أن تهبط عن مستوى المبادىء العامة. وكان صريحاً ولكنه لم يتجاوز مطلقاً حدود الحكمة. ولقد فاق في مجاملته لي كل ما تعوده الضيف من كرم الضيافة وآداب السلوك العربية الساحرة. وعندما عرف أنني سأسافر الى تركيا زارني مبكراً ذات صباح وجاءني برسالة شخصية يقدمني فيها إلى أحد أعضاء الحكومة التركية.

وقد دار الحوار الرئيسي بيننا على مائدة الغداء في منزله بحضور شقيقه توفيق بك السويدي[٥]. كانت وجبة كبيرة بلغت أصناف الطعام فيها عشرة أو يزيد، وإختتمت بطبق انكليزي من حلوى البودنج، في لمسة تنم عن حسن الكياسة.

□ سألته في مستهل الغداء: «ما هي السياسة التي ستتبعونها لو علمتم أنكم ستبقون في منصب رئيس الوزراء عشرين سنة مثلاً؟»

■ أجابني ناجي السويدي دون أي تردد: «سأتبع سياسة تمهد السبيل لقيام إتحاد فيديرالي عربي».

□ «وما هي الدول التي سيضمها هذا الاتحاد؟»

■ كل الدول العربية من الخليج الفارسي في الشرق الى سورية في الغرب، حتى فلسطين ومصر والسعودية واليمن».

□ «لماذا تعتبر الوحدة العربية الفيديرالية أمراً ضرورياً؟»

■ «لأنه باستثناء مصر، ليست هناك أي دولة عربية قوية بالقدر الكافي الذي يؤهلها للبقاء. وكل هذه الدول في حاجة الى التحالف مع جاراتها العربيات إقتصادياً واستراتيجياً وثقافياً».

□ «هل من الممكن قيام مثل هذا الاتحاد الفيديرالي بالرغم من المشاعر الوطنية المحلية والقوية لكل دولة من الدول العربية على حدة، والشعور القبلي السائد عند العرب، والدسائس العائلية الشائعة بينهم والفردية القوية المتفشية وما يترتب عليها من أحقاد؟»

■ «لا شك أن هذه عوامل معوقة، ولكننا لا نريد أن نضحي بفردية كل دولة، ولا نريد ملكاً واحداً أو رئيساً واحداً يحكمنا جميعاً. إننا نريد فقط تحالفاً ثقافياً وإقتصادياً وعسكرياً، ومثل هذا التحالف أمر مستحيل

بدون إتحاد فيديرالي. يجب ألا تكون هناك جوازات سفر بين الدول العربية. ومن الممكن أن لا تكون هناك رسوم جمركية أيضاً. يجب أن تطبق جميع الدول القوانين نفسها ونظم التعليم ذاتها. وسيتم بطبيعة الحال مراعاة الظروف المحلية لكل دولة».

□ «ترى كم من الزمن سيمر قبل أن يصبح مثل هذا الاتحاد الفيديرالي أمراً واقعاً؟»

■ «من يدري؟ ربما عشرين أو خمسين سنة أو أكثر، ولكنه لا مفر من أن يتحقق في النهاية عندما نكون مستعدين له».

□ «وما الذي ستفعله لو كنت رئيساً للوزراء خلال السنوات العشرين التي ستنتظر فيها إلى أن يتحقق حلم الوحدة؟»

■ «سأعد البلاد للاتحاد الفيديرالي حتى يكون تحقيقه في النهاية نتيجة طبيعية للظروف القائمة».

□ «كيف يمكنك أن تحقق ذلك؟»

■ «بعدة طرق، يتم تطبيق بعضها الآن بالفعل. خذ التعليم على سبيل المثال. لقد إتفق العراق وسورية على إتباع نفس المناهج الدراسية، وهناك دول عربية أخرى تفكر في الانضمام إلينا، ووحدة التعليم دون شك خطوة كبيرة إلى الأمام. أنظر أيضاً الى الصحافة. في كل دولة عربية تهتم الصحف إهتماماً كبيراً بشؤون جميع الدول العربية الأخرى، وتفرد لها دائما عدة أعمدة مخصصة يومياً لهذه الشؤون. وهكذا فإن هناك نوعاً من وحدة المعرفة الآنية والموضوعية قائمة بالفعل. ويمكن القيام بالشيء ذاته في مجالات دراسة القانون والموضوعات الأخرى».

□ «هل تستحوذ فكرة الوحدة العربية على إهتمام طبقات الشعب؟ ويبدو أن هناك حنيناً خفياً في جميع قطاعات المجتمع العراقي الى تركيا».

■ وهز ناجي السويدي رأسه قائلا: «إن جيل الذين عاشوا في ظل الحكم التركي ويعتبرون التركية لغتهم بدأ بالانقراض. ولقد حولتنا السنوات الخمس عشرة الماضية تماماً. إننا اليوم دولة عربية ونتحدث جميعاً نفس اللغة، والوحدة العربية هي الهدف الأسمى لكل فرد منا».

□ «تتحدثون عن رابطة العروبة وكأنه لا يوجد ما هو أعلى منها، ومع ذلك أليست هذه الرابطة مجرد مسألة سياسية؟ ماذا عن المبادىء الأخلاقية وماذا عن المعتقدات الدينية؟»

■ «إن واقعية القرآن ـ كما تعرف ولا شك ـ تسمح لنا بأن نسعى إلى غايات أخلاقية في نشاطاتنا القومية تماماً كما تغذي الروح القومية في السلوك الديني. وإن رابطة القومية العربية كمثل أعلى تتضمن كل العناصر الضرورية للتربية الأخلاقية للبلاد. أما الأهداف الروحية البحتة ـ إذا أمكن الحديث عنها على الاطلاق في الدول الاسلامية ـ فلا بد أن تطرح جانباً. إن هدف الوحدة العربية ربما يبدو في نظر الأجنبي مسألة سياسية بحتة، ومع ذلك فإنها الغاية المثلى الوحيدة التي يمكن أن توقظ في نفوسنا أفضل ما فيها وتغرس في شبابنا روح التضحية بالذات والولاء بل وحتى البطولة».

□ «هل يمكن للحركات الجديدة كالشيوعية أو النازية فعلا ان تحل محل العروبة؟»

■ «لا، لأنها تقوم على إفتراضات لا يمكن لنا كعرب أن نتعاطف معها. فنحن ديموقراطيون وفرديون بطبيعتنا وبتقاليدنا. وقد صدمنا كثيراً ببعض الظروف التي صاحبت الحركة النازية. إنهم في المانيا وروسيا يمحون الفرد من أجل فكرة مجردة، وهذا أمر مناقض للعناصر الأساسية في الطبيعة البشرية. ويعتقد بعض العرب أن هتلر وموسيليني وحّدا بلديهما، ونظراً لأننا لم نحقق نحن أنفسنا وحدة تضم جميع العرب فإنهم يمتدحون هذين الدكتاتوريين الأجنبيين. ولكن إذا كان هؤلاء المعجبين يتطلعون الى شخصية قوية فمن الأحرى أن تكون هذه الشخصية من طراز بسمارك لا هتلر، الذي قد يجمعهم في وحدة قومية. لكن هذه الشخصية يجب أن تظل في الحكم فقط إلى أن تنجز مهمتها، لأن حاستنا الديموقراطية هي أقوى من أن تتقبل أي دكتاتورية دائمة.»

هوامش

(١) يتشابه تاريخ العراق الحديث في أوجه كثيرة مع تاريخ سورية الحديثة. وقد أصبح العراق خاضعاً للانتداب البريطاني عام ١٩١٩، ولكن الوصاية البريطانية لم تحظ بقبول من السكان. وعندما اعلنت سورية المجاورة استقلالها في آذار (مارس) ١٩٢٠ ونصبت فيصل على العرش، إندلعت ثورة خطيرة ضد البريطانيين في شمال العراق. وفي شهر تشرين الأول (اكتوبر) استعيد الهدوء. وفي تشرين الثاني (نوفمبر) منحت بريطانيا العراق حكومة وطنية مؤقتة، كانت تعتمد على حسن نوايا السلطات البريطانية. وخلال مؤتمر القاهرة الذي إنعقد في آذار (مارس) ١٩٢١ بحضور السير ونستون تشرشل والكولونيل ت. أ. لورانس الذي كان يقوم بدور هام من وراء الكواليس، تقرر منح ولدي الملك حسين شريف مكة، عرشاً لكل منهما. فمنح إبنه الأكبر عبد الله - والذي كان إعجاب لورانس به أقل - إمارة شرق الأردن، بينما منح فيصل بطل كتاب لورانس «أعمدة الحكمة السبعة» العراق، بعد أن كان قد فقد عرش سورية عندما دخل الجنرال غورو دمشق.

وقد نصب فيصل أول ملك على العراق في ٢٣ آب (أغسطس) ١٩٢١. ولكن المعاهدة التي وقعها مع بريطانيا معترفاً فيها بوصايتها على العراق أثارت ردود فعل معادية من العراقيين. وفي عام ١٩٢٥ وضع دستور جديد أعلن العراق دولة ملكية دستورية لها مجلسي نواب وأعيان. وفي ٣٠ حزيران (يونيو) ١٩٣٠ منح العراق إستقلاله الكامل، وإنضم بعد ذلك بعامين إلى عصبة الأمم.

(٢) كان ناجي الأصيل وزيراً للخارجية في حكومة حكمت سليمان في الوزارة الانتقالية التي شكلت أثر إنقلاب الفريق بكر صدقي رئيس أركان الجيش العراقي عام ١٩٣٦، وقد فقد منصبه في آب (اغسطس) ١٩٣٧ عندما شكلت حكومة جديدة برئاسة جميل المدفعي في أعقاب اغتيال الفريق بكر صدقي في الموصل في آب (اغسطس) ١٩٣٧.

(٣) كان ناجي باشا السويدي، رئيساً لوزراء العراق عام ١٩٢٩ - ١٩٣٠، وشغل بالتناوب مناصب وزير الخارجية ووزير المالية ووزير العدل. كما كان رئيساً للمؤتمر العربي الأول الذي عقد بلودان بسورية في أيلول (سبتمبر) ١٩٣٧.

(٤) جرى الحديث مع ناجي السويدي في عهد رئيس الأركان بكر صدقي، الذي اغتاله أحد جنوده في آب (اغسطس) ١٩٣٧، بعد أقل من عام من توليه السلطة. وكان يلقب بدكتاتور العراق.

(٥) شغل توفيق السويدي، منصب وزير خارجية العراق في حكومة جميل المدفعي التي تألفت في آب (اغسطس) ١٩٣٧، بعد إغتيال الفريق بكر صدقي.

الفَصل السَّابع

مصر: العروبة الممكنة ثقافيًا والصعبة سياسيًا

٧ طه حسين، لطفي السيد وآخرون

لا شك أن أحمد لطفي السيد باشا رئيس جامعة القاهرة كان الشخص المناسب لتوجيه خطواتي الأولى في متاهات الحياة الحديثة في مصر. وكانت القومية والدين والشباب والتعليم كلها من عناصر اختصاصه. كما اشتهر عنه بأنه رجل مثقف للغاية، يحمل أفكارا غربية وقد ترجم بعض المؤلفات لأرسطو الى العربية.

ولم يكن لطفي السيد يعيش في وسط القاهرة مثله في ذلك مثل كثيرين من السكان الأغنياء. وكان منزله يقع في منطقة خاصة بضاحية مصر الجديدة، حيث استقبلني في مكتبه ذو سقف مرتفع على شكل قبة ويشبه المحراب. وكانت الجدران مغطاة بالكتب في خليط محبب من المؤلفات الشرقية والغربية.

وكان لطفي السيد معتزاً بنفسه وانما بدون كبرياء، وكانت ملابسه الغربية تنم عن ذوقه الأوروبي. ولم يكن يتحدث الانكليزية، ولكنه كان يتحدث الفرنسية بطلاقة. وبعد الانتهاء من المجاملات التي تستوجبها التقاليد سألته:

□ «ما هو في رأيك الانجاز الثقافي لمصر خلال فترة السيطرة التركية التي استمرت ٤٠٠ سنة» ؟

■ أجاب لطفي السيد على هذا السؤال وأصابعه الرفيعة والطويلة تداعب حبات مسبحة عاجية: «انه العمل الذي قامت به جامعة الأزهر، وبصورة رئيسية اعداد كتب الشريعة الاسلامية».

ولم تكن جامعة الأزهر باعتبارها الجامعة الدينية الرئيسية للمسلمين في كافة أنحاء العالم رديفا للجامعة العلمانية التي يديرها لطفي السيد. فقد تم انشاء جامعة الأزهر قبل ألف عام وبذلك تعتبر أقدم جامعة ما

زالت قائمة في العالم. وهذه الجامعة هي عبارة عن مدرسة لاصول الدين والشريعة الاسلامية وكانت على مدى عدة قرون مركزا للثقافة العربية.

فاجأني جواب لطفي السيد فسألته: «ألا يؤدي تحديد الانجاز الثقافي الرئيسي لأمـة بالمجـالات النظرية للدين وحده الى قدر معين من ضيق الأفق؟ ذلك ان كثيرين من الغربيين يقولون ان الفكر العربي بعيد عن الواقع. ولا يبدو مثل هذا الاتهام ظالما تماما طالما ان العبقرية الوطنية لم تنتج على مدى أربعمئة سنة سوى قوانين تشريعية دينية».

أجاب لطفي السيد وعلى شفتيه ابتسامة اعتذار قائلا: «يؤسفني أن أختلف معك، ولكن يبدو لي ان الفكر العربي واقعي أكثر بكثير من الفكر الغربي. ان شريعتنا التي ذكرتها كمثال على البعد عن الواقع لا تتناول المسـائـل النظرية أو نظريات الأخلاق فحسب كما هو الحال بالنسبة للتشريعـات المسيحيـة. ان الشريعة الاسلامية تتناول كل تفصيل من تفصيلات الحياة، وفيها تعاليم للتجارة والزواج والارث ومئات القضايا الأخرى. وأعتقد اننا سنقترب أكثر من لب المشكلة اذا درسنا خيال أي شعب بالصورة التي يتم بها التعبير عن هذا الخيال في الدين. ماذا يقول الخيال المسيحي عن الجنة؟ لا شيء. ان جنة المسيحيين عبارة عن نعيم ليس له شكل محدد، انها شيء لا تستطيع أن تراه ولا حتى أن تتصوره. انها تمثل الصورة المثالية للبعد عن الواقع. ولكن كيف يصور الخيال الاسلامي الجنة؟ انه يصورها كأرض حقيقية فيها لبن وعسل وذهب، وأشجار وزهور ونساء جميلات. ان هذه كلها حقائق. أليس من المهم على سبيل المثال ان الخيال الديني المسيحي والاسلامي لا يتفقان الا على «المجـال السلبي» عنـدما يتحدثان عن الجحيم؟ ان الخيال المسيحي نفسـه يرسم الحقيقة في هذا المجال ويتحدث عن اللهب والزيت المغلي والآلام الجسدية».

□ «هل لا يزال الدين نشطا في ساحة الحياة المصرية»؟

■ «ربما كان الدين نشطا في الحياة الاسلامية أكثر منه في الحياة المسيحيـة لأن قوانيننا كلها موضوعة على أساس القرآن الكريم، ومن الصعب أن يفرق المرء في الدول الاسلامية بين الدين والحياة اليومية»(1).

□ «ولكن قيـل لي ان الشبـان في مصر يتخلون عن دين أجدادهم ويتجهون نحو المبتكرات الحديثة الآتية من الغرب».

■ «أشك في صحة ذلك. ربما لم يعد هؤلاء الشبان يؤدون الصلاة في الجامع ولا حتى صلاة الجمعة، ولكنهم ما زالوا متدينين بصورة عامة. وربما أصبح بعض المثقفين ملحدين بتأثير فلسفات غربية معينة، ولكن هؤلاء يمثلون الاستثناء».

□ «هل يهتم المصريون على وجه الاطلاق بالغيبيات والروحانيات»؟

■ «ليس هناك الكثير من ذلك في فلسفتنا الحاضرة، ولكن أدبنا وفلسفتنا يهدفان الى مجرد التوصل الى حياة جديدة. ويجب ألا تنسى ان السيطرة التركية على مدى ٤٠٠ سنة دمرت الحياة الثقافية بأكملها. اننا في طور البدء من جديد».

□ «هل يهتم المصريون بالعروبة بعد أن تخلصوا من السيطرة التركية والبريطانية»؟

■ «من المؤكد أنهم غير مهتمين بالقومية العربية من الناحية السياسية. ان الخلافات بين الدول العربية المختلفة كبيرة للغاية. انما العروبة شيء ممكن من الناحية الثقافية، وسوف تجد ان الشعور بها سوف يزداد في منطقة الشرق الأدنى بأكمله، ولكنها ليست اتجاها سياسيا. ان القومية العربية كحركة سياسية هي في الواقع من اختراع صحافي بريطاني. وأنا لا أذكر اسم هذا الصحافي، ولكنني أعتقد انه كان مراسلا لصحيفة «التايمز» في النمسا قبل أربعين عاما تقريبا».

□ «وماذا بشأن الوطنية المصرية الحالية؟ لقد قيل لي انها تبعد الحياة الثقافية المصريية عن بقية العالم وتحاول الاستعاضة عن أي شيء أجنبي بسلع مصنوعة محلياً. هل تؤمن بمثل هذا الاتجاه الانفصالي»؟

■ «بالتأكيد لا أؤمن به، وأعتقد ان معلوماتك لا بد أن تكون خاطئة. ان وطنيتنا لا تمتد الى ميدان الثقافة، لأنه ليس لدينا العدد الكافي الذي نرغب فيه من الاساتذة الاجانب للتدريس في الجامعة، وذلك يرجع الى قلة الأموال. ان المحاضر الانكليزي يكلفنا بين ٨٠٠ أو ٩٠٠ جنيه في السنة. وهذا أمر لا نستطيع تحمله الا نادرا».

□ «وماذا عن الشعور الوطني لدى الطلبة المصريين»؟

■ «انهم معتدون بأنفسهم كما هي حال الشباب باستمرار. ولكنهم بدأوا يهدأون كثيرا. ولا تنس انه لم يتم السماح لهم بدخول الجيش أو بالتعبير عن رأيهم بصراحة في ميدان السياسة. لقد شعروا بالاذلال

نتيجة للاستعمار، وكان لا بد من وجود متنفس ما لطاقتهم، اما الآن لم تعد هناك ضرورة لمظاهراتهم الصاخبة».(٢)

● علي ماهر

كانت مشكلة الشباب المصري مختلطة بالموضوعات السياسية الى درجة بدت وكأن كبار السياسيين يعرفون دقائق هذه المشكلة أكثر مما يعرفها رجال التعليم. ولم يكن هناك أي شخص يعرف هذه المشكلة بالصورة الواسعة كعلي ماهر باشا رئيس الوزراء السابق والذي سبق ان شغل أيضا منصب وزير المعارف ومنصب وزير العدل. وكان الناس يتنبأون بأن علي ماهر سيصبح رئيسا للوزراء أو مستشارا سياسيا للملك فاروق.

وكان علي ماهر باشا يعيش في منزل حديث وأنيق ذو حديقة واسعة تطل على النيل. وكان يرتدي ـ مثل لطفي السيد رئيس الجامعة ـ ملابس أوروبية ذات ذوق رفيع ودبوسا به لؤلؤة كبيرة على ربطة عنقه. وكان بوجهه الأسمر وعينيه اللتين تفيضان بالحياة والحيوية نموذجا مجسما للرجل الشرقي المحب للحياة.

□ وبعد أن جلسنا في غرفة الاستقبال سألته: «هل توافق على القول أن الشباب المصري أصبح بعيدا عن الدين»؟

■ «أعتقد انه يتعين عليّ الموافقة. ولكن يجب أن نأخذ في اعتبارنا الظروف التي يتم فيها ذلك. ان المشاعر الوطنية قد ازدادت بشكل كبير بعد الحرب العالمية الأولى الى درجة انحسرت فيها كل الموضوعات الأخرى وظلت موضوعات المطامح الوطنية وحدها في الساحة».

□ «وهل سيعود الشباب في أي وقت من الأوقات الى الدين»؟

■ «أعتقد أنهم سيعودون. وحتى في الوقت الحالي هناك عدد من الشباب الذين يتوقون الى اعادة اكتشاف الدين، ولكنهم يمثلون الأقلية. اننا معرضون للكثير من الأفكار الجديدة، وهناك عدد كبير من الاتجاهات المتناقضة في الحياة المصرية، ومن المستحيل أن يتوصل المرء الى نتائج نهائية. ولكنني أعتقد ان من الصواب القول ان هناك اتجاها قويا نحو الدين يسود قطاعا صغيرا من الشباب بصورة لم يسبق لها مثيل قبل عدة أعوام».

□ «هل يتم ذلك بهدف تحويل طاقات الشباب بعيدا عن النشاط السياسي»؟

■ «عندما كنت رئيسا للوزراء قمنا باعداد خطط مفصلة لانشاء معسكرات خاصة في القاهرة وفي جميع مديريات مصر التي يبلغ عددها ١٤. وكان الهدف من اقامة هذه المعسكرات هو اتاحة الفرصة للتدريب الرياضي والعقلي. وكنت أخطط لجعل الشباب يقضون أربعة أيام كل شهر في هذه المعسكرات. وكان من المفروض أن يكون هناك دائما أساتذة لالقاء المحاضرات. وكان هدفنا بناء الشخصية، وهكذا تم التخطيط لالقاء محاضرات في الموضوعات الاجتماعية والثقافية والتاريخية. لقد كنا نرغب في الخروج بشيء مشابه للجامعات الانكليزية، ولكن على نطاق أكثر تواضعا ومتوافق مع ظروفنا الخاصة».

□ «هل تم تنفيذ هذه الخطط على الاطلاق»؟

■ «عندما تولى حزب الوفد السلطة أوقف تنفيذها».

□ «ولكن لدى حزب الوفد أيضا خططه الخاصة بتوجيه طاقات الشباب، أليس كذلك؟ لقد قيل لي ان الوفد يركز حاليا على النشاطات الرياضية».

■ «هذا صحيح، ولكن الخطط الحالية تركز على تخريج عدد من الرياضيين البارعين بهدف تحقيق الفوز لمصر في المباريات الدولية. وهذه الخطط لا تضع الجماهير في اعتبارها بل تركز أكثر من اللازم على التدريبات الرياضية وحدها وتترك الشخصية وشأنها. ولكن التعليم الذي يهدف الى تحقيق الوعي الكامل للمواطن يجب أن لا يخدم أبدا مصالح أي حزب سياسي يرغب في تعبئة قوى الشباب من أجل الدعاية الخاصة له. ان التعليم الصحيح لشبابنا لا يمكن أن يتحقق الا عن طريق حكومة وطنية غير حزبية».

الأزهر والشيخ المراغي

كان اسما الأزهر ـ الجامع والجامعة ـ والشيخ مصطفى المراغي شيخ الأزهر، يترددان بدرجات متفاوتة في اللقاءات التي تناولت الشؤون الثقافية. وكانا يفرضان أنفسهما على الأحداث باستمرار باعتبار ان

الشيخ المراغي أكبر مرجع وأوسع سلطة اسلامية في مصر الى جانب كونه معلما للملك فاروق.

وكان شيخ الأزهر يعيش في حلوان على مسافة ٣٠ ميلا تقريبا من القاهرة. ولم يكن يتحدث أي لغة أوروبية، ولذلك توجهت الى منزله برفقة مترجم. وعندما وصلنا الى هناك في الساعة العاشرة صباحا كان الشيخ المراغي يتمشى في حديقة منزله، وهو منزل حديث مشيد على الطراز الشرقي. وكان الشيخ المراغي صورة مجسدة للوقار بعباءته ذات اللون البني الداكن التي يرتديها فوق جلباب من الحرير، وبأناقته بصورة لافتة للنظر بالنسبة لرجل في الخمسينات من عمره، وكان يتمتع بعينين جميلتين وذقن قوية تغطيها لحية اعتراها الشيب.

وجلسنا في الحديقة، وأحضر خادم سوداني يرتدي جلبابا أبيض القهوة التقليدية، ووضع الشيخ المراغي علبة سجائر فضية كبيرة على الطاولة. وكان سلوكه يشبه سلوك الدبلوماسي الشرقي الذي تعود على المواقف الصعبة، ولذلك حرص على تجنب الالتزام بأي موقف.

□ وبدأت بتوجيه السؤال التالي اليه: «قال لي بعض الشباب ان هناك محاولات لاقامة اتصال وثيق بين الدين والعلم. هل هذا صحيح»؟

■ «لا أعتقد ان الشباب المصري أقل تديناً عن ذي قبل. وليس هناك في القرآن الكريم أي نص ينفي الحقائق العلمية. كما انه ليس هناك تناقض بين الدين والعلم».

□ وقررت أن أكون أكثر صراحة في أسئلتي، فقلت: «ألا تعتقد أن العوامل الروحية أو حتى العوامل الغيبية هي أهم العوامل في الدين»؟

■ «من يعرف ما هي طبيعة الله تعالى؟ من يعرف ما هي طبيعة الروح؟ ان بعض مدرسينا يتحدثون عن المادة كواقع والبعض الآخر يقول انها مجرد افتراض. ولكن ليس هناك من يستطيع أن يحدد كنهها بصورة مؤكدة. والقرآن الكريم لا يفرق بين الاتجاهين. ويتعرض لحقائق مثل الزواج والقوانين المالية».

□ «ولكن ما هو موقفك من مشكلة الله والمادة»؟

■ «ان القرآن الكريم يسمح بأي تفسير. وبعض علماء الاسلام أقرب الى الحقيقة من البعض الآخر، ولكن لا يستطيع أي منهم معرفة الطبيعة الحقيقية لله تعالى».

وفي كل مرة صغت فيها أسئلتي لكي أجبره على اجابة مباشرة بكلمة لا أو نعم، كان يكتفي بالابتسامة ويجيب بالحديث عن عموميات معقدة ومتشابكة لدرجة يصعب تسجيلها. وكان الأمر يشبه السير على سطح الماء. واذا استطعت الاستمرار في الحديث، (وكان الحديث بهيجا للغاية) الا أنني لم أستطع امساك أي شيء بيدي أو تحديد الشكل أو اللون أو الحجم. وهكذا قررت التركيز على المسائل العملية. فسألته:

□ «ماذا سيحدث لآلاف الطلبة الذين لا يوجد لهم العدد الكافي من الوظائف بعد تخرجهم؟»

■ «من يستطيع التنبؤ بذلك؟ أنا شخصيا لا أعرف».

وعندما واصلت أسئلتي بالحاح أجاب قائلا:

■ «انني أحاول تخفيض عدد الطلبة الذين يدخلون جامعة الأزهر».

□ «هل تعتقد أن عدم التكافؤ الكبير بين عدد حاملي الشهادات الجامعية وعدد الوظائف المتاحة يمكن أن يؤدي يوما ما الى اعتناق الشيوعية؟»

■ «من يستطيع التنبؤ بذلك؟» واستطرد الشيخ المراغي والابتسامة نفسها ترتسم على شفتيه الأنيقتين قائلا: «قد يبرز هذا الخطر يوما ما، ولكنه غير قائم الآن».

□ «لقد اعترفت سماحتك في وقت سابق خلال حديثنا بأن المبادىء السياسية الحديثة كلها تشكل خطرا في دولة مثل مصر. ومن الواضح ان الدين هو القوة الوحيدة التي تستطيع مواجهة هذه المبادىء. وتقع على عاتقك انت مسؤولية كبرى باعتبارك أكبر سلطة دينية في هذه البلاد، أليس كذلك؟»

اختفت الابتسامة من وجه الشيخ المراغي وعلت هذا الوجه ملامح الجد وهو يقول:

■ «انني أعي وأؤمن بأن شعبنا لن يبتعد اطلاقا بصورة كاملة عن الدين، واذا ابتعد فسوف يعود اليه. ولكنني لا أستطيع في الوقت الحالي أداء مهام وظيفتي على أكمل وجه الا اذا حصلت على الدعم الضروري من السياسيين والصحافة ومن الشباب أنفسهم».

□ «هل تحصل على هذا الدعم بالفعل؟»

■ للمرة الأولى رد الشيخ المراغي على الفور دون تفكير سابق قائلا:

«كلا، لا أحصل عليه».

□ «لعلك تحصل على الدعم من الملك الشاب فاروق. هل هو متدين حقيقة؟»

■ في هذه المرة اعتلت صوت الشيخ رنة حزن وهو يقول: «ربما أحصل عليه منه. من يعرف؟ نعم ان الملك متدين للغاية».

برغم ان الشيخ المراغي لم يصرح بالكثير في هذا الحديث الا أنني لم أستمتع بأحاديث كثيرة أكثر مما استمتعت بالحديث معه. وقد استمتعت بالاستماع الى صوته الموسيقي ولغته الغنية التي لاحظتها على الفور رغم انني لم أكن أدرك معنى ما يقوله فور النطق به. وكان الشيخ المراغي واسع الأفق الى أقصى حد نظرا لكونه شيخ من شيوخ الاسلام، لذلك أعطيت قيمة كبيرة لمحاولاته تحويل الأزهر الى مؤسسة تقدمية وعصرية.

الدكتور حافظ عفيفي

كان الدكتور حافظ عفيفي باشا أول سفير لمصر في لندن وكان من بين الشخصيات التي حرصت على لقائها. والدكتور حافظ عفيفي من كبار أطباء الأطفال في مصر الى أن عين وزيرا للخارجية عام ١٩٢٨ وهو يتمتع بتقدير كبير نظرا لآرائه الموضوعية ومعرفته الواسعة بالحياة الثقافية في مصر.

وعندما أخبرته عن زيارتي للشيخ المراغي قال: انني معجب الى أقصى حد بالشيخ المراغي، وهو أفضل شخص مؤهل في الوقت الحالي لتزعم حركة التعليم الديني التقدمي. ولكن ليست لدي ثقة كبيرة بميول التحديث في الأزهر. ان التحديث لم يتعد نطاق تخلي الطلبة عن الجلوس القرفصاء على الأبسطة وأصبحوا يجلسون على المقاعد. كما أنهم بدأوا في وضع كتبهم على مناضد بدلا من وضعها على ركبهم. وان المدرسين يتقاضون الآن مرتبات أفضل مما كانوا يتقاضونها قبل عشرة أعوام. ان التحديث لم يمس الأساليب ولا العقلية الكامنة وراء التعليم هناك. وحتى اليوم ما زال الأزهر يهتم بالشكليات الدينية والنظريات المبالغ فيها. فالطلاب هناك يضيعون الكثير من سنوات شبابهم الثمينة التي كان بامكانهم الاستفادة منها في دراسة موضوعات هامة ومفيدة بالنسبة

لبلادهم. ومهما كانت درجة العيوب في النظام العلماني للتعليم في مصر، فان هذا التعليم يتجه بصورة متزايدة نحو المنطق العلمي السائد حاليا، بينما لا يزال التعليم في الأزهر كما كان في العصور الوسطى من ناحية النظرية والتطبيق معا. ومن التقاليد السائدة في الأزهر أن يتم اختيار معظم المدرسين من خريجي الأزهر نفسه. وطالما استمر العمل بهذا التقليد سيظل التعليم هناك في حالة متخلفة دائماً، ولا يمكن أن نأمل في حدوث نهضة روحية من جانب الدين طالما ان مدرسي الدين لم يتم تدريبهم بالصورة المستنيرة نفسها التي يتم بها تدريب المدرسين العاديين».

□ هنا قاطعته قائلا: «لماذا تعتبر مثل هذه النهضة ضرورية؟»

■ «لأنه لا بد أن تكون هناك قواعد روحية للفلسفة الكامنة وراء الحياة المصرية. ولا يمكن أن تأتي هذه القواعد من مصدر آخر غير الاسلام، ولكن هذا الاسلام لابد أن يكون نقيا وبعيدا عن المعتقدات البالية. وأعني بذلك انه علينا جعل التعليم الديني على الدرجة نفسها من الاستنارة مثل الثقافة العامة لدينا. لقد نشأت القوة الكبيرة الدافعة للاسلام خلال عصره الذهبي أساسا عن بساطته وخلوه من النظريات المعقدة. لقد قدم الاسلام للعالم حضارة عظيمة للغاية، وحوّل خلال فترة قصيرة القبائل البدائية الى أمم متحضرة. ويجب على الاسلام خلال نهضته في المستقبل قيادة أتباعه مرة أخرى الى الحضارة الحقيقية. ولاداء ذلك يتعين على الاسلام أن يترك جانبا التقاليد البالية والنظريات الغامضة التي تعود الى العصور الوسطى والتي لا علاقة لها بجوهر الاسلام. وفي هذه الحالة يمكن للاسلام أن يصبح القوة الروحية التي تحتاج اليها البلاد بصورة ماسة».

□ «ما هي في رأيكم المشكلة الرئيسية بالنسبة لمستقبل مصر؟»

■ «من الواضح أن المشكلة الرئيسية هي التعليم أولا والتعليم ثانيا. ويجب على المدرسين الدينيين وغير الدينيين عدم تدريس العلوم وحدها بل تدريس القيم والفضائل الاجتماعية أيضا. ويجب أن نعيد الى شعبنا فضائل الشجاعة والصدق والخير وحب الفنون والعلم وطهارة الجسم والعقل. لقد كانت هذه الفضائل بمثابة القوة المحركة للاسلام ويجب أن نعيدها اليه. وسوف يتعين على شبابنا بتعليمهم غير الكامل أن يدركوا أن

أي دولة لا تستطيع أن تعتبر نفسها متحضرة طالما أن معظم سكانها يعيشـون في الظروف المؤسفة التي يعيش فيها الفلاحون لدينا. ولن نتمكن من تغيير هذه الظروف الا عن طريق تنظيم عملية طويلة من التعليم الثقافي والعلمي».

□ «هل هناك في مصر رجال يتمتعون بالرؤيا والشجاعة المعنوية اللازمة للحديث عن المتطلبات الرئيسية للبلاد؟»

■ «نعم. وسوف أذكر لك بعض الأمثلة من أصدقائي: لطفي السيد ومحمد حسين هيكل ومصطفى وعلي عبد الرازق وطه حسين».

● طه حسين

يعتبر الدكتور طه حسين بك من أشهر الكتّاب والمفكرين المصريين وأكثرهم تقدمية. وبعد تفوقه في الدراسة في الأزهر تم ارساله في منحة على نفقة الدولة للدراسة في جامعة السوربون في باريس، وهناك فاز بكل درجة علمية متاحة. واليوم أصبح طه حسين عميدا لكلية الآداب واستاذا للأدب العربي في الجامعة، ويشتهر بأنه واحد من أفضل كتّاب العربية في الوقت الحالي. ولم يحظ طه حسين برضى علماء الدين والمسؤولين بسبب صراحته العلمية وأمانته الثقافية[٤]. وكان الشباب يحبونه ويحترمونه في آن واحد، ولكن انتقاداته الحادة للأوضاع الحالية في مصر جعلت فريقا من الناس يكرهه بقدر ما يحبه الفريق الآخر. وعندما تثار أية مشكلة ثقافية مهمة في مصر، يلجأ الشباب ورجال الصحافة الى طه حسين لمعرفة رأيه. وقد اتهمه كثيرون بالالحاد بسبب انتقاداته للصور الدينية الزائفة وهجومه على الاتجاهات الرجعية في الحياة المصرية. ولكن سرعان ما يدرك المرء بعد خمس دقائق من الحديث معه انه أبعد الناس عن الالحاد، وانه بالطبع ليس من النوع الذي يقبل أي تفسير للقرآن الكريم دون نظرة فاحصة ومدققة.

فقد الدكتور طه حسين بصره منذ طفولته، ولذلك قاده الى الغرفة التي كنت أنتظره فيها أحد أفراد السكرتارية. وكان طه حسين رجلا في منتصف العمر ويرتدي نظارات سوداء تخفي عينيه، ومسلكه ينم عن القوة، كما كانت اجاباته واضحة دون تردد ولو لبرهة واحدة. ودار

الحديث بيننا بالفرنسية.

بدأ الدكتور طه حسين الحديث قائلا: «لقد سمعت انك مهتم بالمسائل المتصلة بديننا وشبابنا. ان الدين ليس له وجود كقوة روحية لدى الذين درسوا في المدارس غير الدينية، وهم يمثلون الأغلبية. وعندما تتحدث الى أي منهم ستجد أنهم ينكرون الدين والتقاليد في آن معا. انهم لا يعبدون سوى المنطق أو المادية اذا أحببت أن تسميها كذلك. واكتشف هؤلاء خلال الثلاثين سنة الماضية ما اكتشفته أوروبا قبل عدة قرون بفضل الموسوعيين وجان جاك روسو، وكان ذلك الاكتشاف هو المنطق. ولكن هذا الاكتشاف جاء مصر بعد قرون من سيطرة الدين وما نتج عن ذلك من تخلف. وقد أدى هذا الاكتشاف الى اشعال حماس الشباب وجعلهم ينسون جميع الآلهة الآخرين».

□ «إذاً، لم يعد للدين دور في حياة الشباب؟»

■ «على العكس من ذلك تماما، انه يلعب دورا. ان شبابنا يتسمون بالتناقض في سلوكهم ازاء الدين نظرا لعدم ثباتهم على موقف واحد. انهم يقيمون معتقداتهم على أساس ما كان يؤمن به آباؤهم في اطار وطنيتهم ومقاومتهم للنفوذ الأجنبي. ولكن لماذا؟ لأن القرآن الكريم يمثل في الشرق الأدنى الأساس الوحيد لكل المحاولات الرامية الى انشاء أمة. ان طلبتنا أصبحوا في حياتهم العادية قسما ضئيلا معزولا عن بقية السكان. ولكنهم وجدوا ان القرآن الكريم يوحدهم مع كل فلاح في الريف ومع كل بدوي في الصحراء. وعن طريق قبول القرآن الكريم تمكن هؤلاء الطلبة من التحالف مع الجماهير بمفهومها العريض في كفاحهم السياسي. ولكن القرآن الكريم لا يمنحهم سوى السلاح السياسي وليس السلاح الروحي».

□ «ولكن ما هي طبيعة موقفهم الروحي؟»

■ «انهم معلقون في الهواء تماما من الناحية الروحية. فهم لم يهضموا منطقهم الجديد فقد استوعبوا بعقولهم الأفكار الآتية من الغرب، بينما ظلت قلوبهم بعيدة عنها. لذلك عزل هؤلاء الشباب أنفسهم عن دين آبائهم وظلوا محرومين من أي أساس روحي. لكن هذا لا يعني أن الدين أصبح بعيدا عن آمالهم ومخاوفهم».

□ «هل تعني أنهم يصبحون متدينين في لحظات القرارات الحاسمة؟»

■ «ضحك الدكتور طه حسين قائلا: «هذا ما أعنيه بالضبط. فقبل اجراء عملية ما، وقبل دخول امتحان في المدرسة، يصبح أكثرهم منطقا مؤمنا بصورة فجائية بقوة غير منطقية. انها قوة غيبية تساعد الجراح على اجراء عملية جراحية ناجحة وتؤثر على مسلك الأستاذ الذي يتولى الاختبار وتوحي الى الطالب بالأجوبة السليمة. انهم يتذكرون اسم الله تعالى فجأة».

وضحك الدكتور طه حسين مرة أخرى وأنهى فنجان القهوة ثم استطرد قائلا بلهجة جدية مشددا على كل كلمة من كلماته: «ماذا يعني هذا كله؟ انه يعني ان غرائزهم البدائية هي التي تقودهم. انك ستجد الغريزة الدينية البدائية في نفس كل انسان، كما في نفس الهمجيين المتوحشين. ومع ذلك يجب ألا يقوم دين الانسان المتحضر على أساس الرغبات الكامنة في النفس وحدها، ولكن على أساس الادراك الواعي بقيمته الروحية».

□ «وماذا بشأن طلبة الأزهر؟»

■ «ان الدين بالنسبة لهم مهنة ومصدر للدخل ولا يزيد عن ذلك».

□ «هل تعتبر إذاً ان الأزهر يبتعد عن الاتجاهات الروحية؟»

■ «ان الشيخ المراغي الذي أكن لشخصه كل احترام هو رجل حكيم. لقد أدرك انه يجب عليه أن يتحرك مع الزمن كي يحافظ على نفوذ جامعته. انه يحاول اثبات ان القرآن الكريم لا يتناقض تماما مع المنطق ومع كل القوى المادية الظاهرة اليوم في مصر».

□ «ولكن ما هو رأيك في مستقبل الاسلام في مصر؟»

■ «اننا نشهد في الوقت الحالي بداية تغيرات ثورية في الحياة المصرية. نحن أسرى المادية والمنطق من ناحية، ولكننا من الناحية الأخرى لا نملك الشخصية أو التقاليد التاريخية والاجتماعية التي يملكها الغرب. أضف الى ذلك حالة السخط الاقتصادي السائدة بين شبابنا، حيث ستجد الظروف المثالية لقيام الاشتراكية أو الشيوعية أو أي شيء تختاره. ولكن ذلك لن يحدث غدا بل سيحتاج الأمر الى عشرين أو ثلاثين عاما. ومع ذلك فانني آمل في أن يثبت الاسلام مرة أخرى قوته ـ والاسلام لديه بالفعل قوة هائلة ـ وآمل في أن نجد عن طريق هذه القوة القيم التي فقدناها منذ زمن طويل. ان هذا الاسلام سيكون اسلاما

حديثا وروحيا. فالأديان العقلانية ليست أديانا، ولا يمكن أن يكون هناك دين دون عنصر روحي وغيبيات ومعجزات».

□ «هل تعتقد بامكانية ظهور زعيم قوي يمكن أن يفرض على مصر الايمان بالصورة التي فرض بها لينين وأتاتورك وهتلر عقائدهم في بلادهم؟»

■ «كلا. يجب عدم مقارنة مصر بأي من هذه الدول. ان لدينا اتجاهات فردية قوية. وقد يقلد بعضنا ما قام به القادة الأجانب، ولكن لن يكون لذلك تأثير قوي. ان المجتمع المصري بدأ في اظهار ميول دينية لأن الملك فاروق يبدو متدينا ويؤدي الصلاة رسميا كل جمعة، ولكن هذه كلها مجرد مظاهر ليس الا. ان مجتمعنا يتألف من خراف ولكن شعبنا يتألف من أفراد».

هوامش

(١) بذلت في الاونة الاخيرة محاولات لاظهار ان الطابع العلماني للاسلام قد فرض عليه بصورة مصطنعة في العصور الاخيرة. وقد حاول الشيخ علي عبد الرازق، وهو من أبرز المفكرين المصريين، أن يثبت في كتابه «الاسلام ومبادىء الدولة»، ان الاسلام مجرد دين مثله في ذلك مثل الاديان الاخرى، وان النبي محمد (صلعم) كان رسولا دينيا وليس مصلحا اجتماعيا، وأن من الخطأ المزج بين الاسلام والشؤون القانونية والسياسية. وقد هوجم هذا الكتاب واجبرت لجنة من كبار العلماء بالأزهر الحكومة على اقالة الشيخ علي عبد الرازق من منصبه كقاض.

(٢) أدت الاضطرابات العنيفة التي قام بها الطلاب في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٧، الى اجبار أحمد لطفي السيد باشا على الاستقالة من منصبه كمدير للجامعة. وبعد شهر واحد تم تعيينه عضوا في حكومة محمد محمود باشا.

(٣) في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٧ تم تعيين علي ماهر رئيسا للديوان الملكي، وبذلك أصبح المستشار السياسي للملك فاروق.

(٤) نشر طه حسين كتابا تحت عنوان «الشعر الجاهلي» عبر فيه عن بعض الآراء الثورية تماما بشأن حضارة ما قبل العصر الاسلامي، مما أثار علماء الدين وطالبوا بمصادرة الكتاب وفصل مؤلفه الملحد من الجامعة. واضطر البرلمان للتدخل لانهاء الضجة التي ثارت في كل أنحاء مصر بسبب ذلك.

الفصل الثامن

اليمن : صورة من بعيد

٨ الأمير حسين بن يحيى

يقع اليمن في أقصى الطرف الجنوبي الغربي من الجزيرة العربية، وهو ما كان الرومان يطلقون عليه «اليمن السعيد». ولقد بدأت الأساطير التي كانت تحيط بماضيه في الانقشاع فقط في الآونة الأخيرة، ليحل محلها التاريخ، ومع ذلك ما زال حاضره مغلفاً بستار من غموض المجهول. وبقدر ما بلغت حضارته القديمة في العلو شأواً كبيراً، بقدر ما آلت أحواله اليوم إلى التخلف.

واليمن أصغر كثيراً من المملكة العربية السعودية حيث يبلغ عدد سكانه ثلاثة ملايين نسمة، وتبلغ مساحته ٥٠,٠٠٠ ميل مربع، ولكنه أغنى نسبياً من السعودية. ويزرع في اليمن بعض من أجود أصناف القهوة في العالم وخاصة بالقرب من المخا. وقد أدت الحوادث المتصلة بغزو ايطاليا للحبشة في عام ١٩٣٦ إلى إكتساب اليمن وضعاً أكثر أهمية على خريطة السياسة العالمية على نحو لم يكن ليؤهله له موقعه المنعزل، وتخلفه، في الظروف العادية.

وقد تولى الامام يحيى (أو إذا استخدمنا اسمه الكامل الامام يحيى بن محمد بن حميد الدين) الحكم خلفاً لأبيه الامام منصور مفتي العاصمة صنعاء في عام ١٩٠٢. وقد حكم الامام يحيى اليمن حكماً قوياً منذ بدء ولايته، حيث لعب فيه الدهاء والشك والتعصب وحسن الحظ أدواراً متساوية تقريباً. وبدأ حكمه بمحاربة مولاه السلطان التركي، ونادراً ما كان يفوت فرصة لمحاربته. والامام يحيى ضليع في علوم القرآن، ومن عادته أن يقرض الشعر المتوسط الجودة في الموضوعات الدينية أو الأحداث الجارية، وكثيراً ما كتب رسائله الى الموظفين الرسميين أو المواطنين البارزين في صورة قصائد، وأحياناً بالحبر الملون.

وقد وجدت السلطات البريطانية في عدن في الإمام يحيى جارا صعباً الى حد ما. وحاولت بريطانيا أن تبرم معاهدات معه في مناسبات عديدة بين عامي ١٩١٩ و١٩٢٦، ولكن جميع هذه المحاولات باءت بالفشل. لم يبد الامام يحيى إهتماماً بالمستحدثات الغربية، على خلاف إبن سعود. وكان من الصعب إقناعه بالتغلب على شكوكه وكراهيته للمسيحية وإقامة علاقة مع العالم الغربي على أسس أكثر إستقراراً. وكانت تُنظم علاقاته مع إيطاليا معاهدة يجددها كل عام. أما معاهدة الصداقة التي وقعها مع بريطانيا في عام ١٩٣٤، فلا تزيد أهميتها عن قيمتها الافلاطونية بالنسبة لبريطانيا. ومع ذلك فهي تعترف به ملكاً لليمن.

ولقد بلغ الامام يحيى من الحنكة ما جعله يتجنب أي نفوذ أوروبي. وعندما كان تابعاً للأتراك، كانوا يدفعون له ٣٠٠٠ جنيه تركي كل شهر، وعندما هزمهم على أيدي الحلفاء رفض كل الاغراءات المادية من أي قوة أجنبية خوفاً من أن يفقده ذلك استقلاله. وهو قد لا يرفض بطبيعة الحال أن تهدى إليه سيارة او زوج من البنادق، ولكن هذه لا تزيد عن مجرد لمسة ديبلوماسية تعبر عن الكياسة، وهي واحدة من اللمسات القليلة التي تسمح بها حياة لا مكان فيها للجوانب الأرق من فنون الاتصال الانساني. ويعد استقلال الإمام يحيى في الشؤون الخارجية أحد المصادر الرئيسية لقوته السياسية وأهميته في القضايا السياسية الحاضرة.

وتقوم سلطته داخل بلاده على الخوف أكثر مما تقوم على حب الشعب له، ولم يؤثر ورعه الشديد في تعديل مواقفه تجاه رعاياه. وتعد سلطته الروحية التي يستمدها من زعامته الدينية الوراثية أحد المصادر الرئيسية لقوته السياسية.

وما زال اليمن يحكم حتى الآن كلية بطريقة شيخ القبيلة حيث يمثل الإمام ـ الملك أعلى سلطة تشريعية وتنفيذية. ولا توجد حكومة بالمعنى المتعارف عليه بل الامام الذي يتحكم في الشؤون المالية والسياسية للبلاد كما يتحكم في جيشها. ويقوم شخصياً مرة في الأسبوع بدور السلطة القضائية العليا حيث يحكم في النزاعات بين مواطنيه. وكثيراً ما يقوم أيضاً بدور الطبيب، وتحظى نصائحه الطبية بتقدير كبير من الزين يلجأون إليه طلباً لها.

عقد الإمام يحيى معاهدة صداقة مع إبن سعود في عام ١٩٣٢، وبرغم خلافاتهما من النواحي السياسية والمذهبية فإن رابطة الورع الشديد تجمع بينهما، والاسلام هو أعلى مصادر الالهام بالنسبة لهما. ورغم عدم ثقتهما الشديدة ببعضهما البعض إلا أن كلاً منهما يكن الاحترام لصدق الآخر في عقيدته الدينية.

ويتبع الامام يحيى وجميع البارزين من أبناء اليمن الطائفة الزيدية التي ربما كانت أشد الطوائف الاسلامية تعصباً. والإمام نفسه هو رئيسها المعترف به من قبل الجميع.

ويعد اليمن بين الدول العربية الأكثر تخلفاً. ويعتبره البعض إحدى العقبات الرئيسية أمام تهدئة الأوضاع في الشرق الأدنى بصفة دائمة. إذ أن التعصب الديني المتطرف والولع بالقتال الكامن في نفوس السكان يجعلان اليمن حالة فريدة من نوعها. وقد وصف أحد اليمنيين الأذكياء الخصائص المميزة لأبناء اليمن في حديث مع كاتب أجنبي فقال: «أبناء شعبنا ما زالوا همجيين. إنهم يعيشون في خوف وشك وريبة، لا من الغريب فقط وإنما من بعضهم البعض أيضاً. إنهم كالوحوش (...) كل متحفز للانقضاض (...) إنهم دائماً يقاتلون بعضهم البعض (...) إنه شيء في طبيعتهم».[1]

● ● ●

لم أزر اليمن، حيث ما زال الدخول الى البلاد أمراً بالغ الصعوبة. وتتطلب الزيارة وقتاً طويلاً، كما أن إحجام معظم الناس المعروف عن التحدث بصراحة مع أي شخص من غير المسلمين كان من شأنه أن يجعل رحلتي المحتملة مجرد مضيعة للوقت. وقد التقيت برغم ذلك مع واحد من أهم المواطنين في البلاد وهو الأمير حسين الابن الأصغر للإمام يحيى في ظروف كان من الأسهل عليه أن يتحدث معي ويجيب على اسئلتي بصراحة أكثر مما لو جرى الحديث بيننا في بلاده.

وكان الأمير حسين يمثل والده في حفل تتويج الملك جورج السادس. وعندما إنتهت زيارته الرسمية لبريطانيا، إستأجر منزلاً خاصاً في ساوث كنسنغتون لمدة شهرين. وكان المنزل ملكاً لسفير بريطاني سابق. زينت جدرانه صور زاهية الألوان من رسم الفنان لازلو لصاحب البيت

وزوجتـه، وكانت المناضد من طراز شبيندال والمرايا والثريات كلها من النوع العادي. ومع ذلك تحول شكل الغرفة تحولاً تماماً. ورغم أن الأمير لم يضف إلى محتوياتها شيئاً من عنده، إلا أنها أصبحت عربية الطابع. فقـد دفعت المقـاعـد والأرائك الى الخلف ووضعت في شكل صف على الطريقة العربية. ولم تكن هناك زهور في المزهريات، ولا كتب على الرفوف أو سجـائر أو علب ثقاب، أو أي من الحلي البسيطة التي تعطي حياة للبيت الغربي. وقد حل مكان النظام والتنسيق الذي كانت عليه الحجرة من قبل شيئاً لا يمكن وصفه بالفوضى، وإنما بالبساطة التي تعد جزءاً من الحياة العربية والتي تصبح واضحة على وجه الخصوص عندما لا تكون هناك علاقة حقيقية بين البيت وساكنيه.

الأمير حسين شاب في التاسعة والعشرين من عمره، ويرى البعض أنه أكثر ذكاء وإستنارة من أخيه الأكبر ولي العهد، الذي تعد معرفته بالعالم محدودة للغاية.

والأمـير حسـين صغـير الجسم، ونحيله، وجهه فيه ذكاء ووسامة. وتختفي عيناه المتوقدتان وراء نظارة ذات اطار عاجي. وكان يغلب على الزي القومي الذي يرتديه اللونان الأخضر والذهبي. وكان يحيط بوسطه حزام رائع من الفضة يتدلى منه خنجر طويل ذو مقبض فضي. تحدث الأمير بسرعة وحماس وبصوت حاد النبرة. ولكن كلماته أعطت إنطباعاً بالصدق. وكان لا يعرف أي لغة بإستثناء العربية.

عندما سألته ما إذا كان الدين أساس الحكم في اليمن؟ أجاب بطريقة لم تخل من الإنفعال: «الإمام هو الرئيس المدني للبلاد وزعيمها الروحي. إننا من ذرية النبي محمد (صلعم)، وهذا ما يمنح أسرتنا الحاكمة سلطة إستثنائية. فالناس لا ينظرون الى الملك بوصفه رئيساً للدولة فحسب بل بوصفه إمامهم الديني أيضاً. وهذا واحد من أسباب القوة البالغة للأسرة الحاكمة. ولن يجد أي حاكم آخر أو أي أسرة مالكة أخرى أدنى فرصة للنجاح أن اعترف الناس به في اليمن»

كرر الأمـير الجملتـين الأخـيرتـين بصور مختلفة عدة مرات خلال محادثتنا. ولم أستطع مقاومة شعور بالشك في أن الأمير الشاب الذي كان قد سمع عن الزيارة التي قمت بها مؤخراً للملك إبن سعود، حاول اقناعي بأنه لو حاول حاكم المملكة العربية السعودية أن يحتل اليمن ـ

كما كان قد أشيع قبل سنوات قليلة ـ فإنه سيجد البلاد كلها متحدة ضده. وربما كان ذلك صحيحاً بالنظر الى التعارض التام بين مذهب الزيدية في اليمن والمذهب الوهابي في نجد.

ولقد خيل إلي أنني ميزت شيئاً مألوفا في وجه الأمير الشاب الرفيع، وعظام وجنتيه البارزتين ولحيته الخفيفة السوداء التي كانت تخفي جزئياً الجلد الأصفر حول عينيه الداكنتين. كانت عيناه وتعبيرات وجهه، وملامحه تقريباً كتلك التي يراها المرء في صور بعض القديسين في رسومات الفنان الغريكو. فلقد كان في وجهه كما في وجوه صور هؤلاء القديسين، نفس الحماس المتقد والايمان الديني المفرط. فلقد محت نيران الحماس الديني الداخلي وملامحها الثابتة كل الاختلافات الخارجية من حيث العنصر والعقيدة.

وحيث أنه لا مفر من أن ينجذب اليمن إن عاجلاً أو آجلاً الى عملية التحول الغربي، شأنه شأن كل دول الشرق الأخرى، إلا أنني رغبت ان اتعرف إلى الأمور التي استرعت أكثر من غيرها إنتباه الأمير الشاب في الغرب. وقصرت سؤالي له حول إنطباعاته عن انكلترا.

لم يجب الأمير على الفور وجلس يفكر في الجواب، واعتذر مرتين بأنه نظراً لصعوبة صياغة انطباعاته في ملحوظات قليلة فإنه كان في حاجة الى بعض الوقت ليفكر في إجابته.

وفي النهاية قال لي: «هناك ثلاثة أشياء في انكلترا أثرت في نفسي أكثر من غيرها. الأولى هي ولع الناس بالقراءة، حيث يبدو أن كل الناس يقرأون في كل مكان. إن المرء ليرى حتى الأطفال الصغار في عرباتهم يقلبون الصفحات الكبيرة في كتبهم المصورة».

وتابع الأمير كلامه قائلاً: «أما الشيء الثاني فهو الرقة الطبيعية والصبر والأمانة التي يجدها المرء في الانكليز، ولا أعرف بالضبط أين أبحث عن جذور هذه المشاعر، ولكنها تبدو مشاعر صادقة. ولهذا السبب أخلص إلى أن هذه المشاعر تستمد قوتها من روح دينية، وإنني أجد ذلك ملفتاً للنظر لأن الانكليز شعب متحضر ومتقدم للغاية، وكان آخر ما توقعته أن أجد هنا دلائل واضحة على وجود حياة دينية.»

وأضاف قائلاً: «ويقودني ذلك إلى الملاحظة الثالثة. ليس هناك أي وجه للغرابة في ان يلعب الدين دوراً هاماً في الحياة اليومية في البلاد المتخلفة

كبلادي. ولكن ذلك أمر يبعث على الدهشة في بلد كانكلترا... نعم... نعم. (وهنا أصبحت كلماته مشوبة بالإنفعال مرة أخرى) إن العاطفة الدينية في انكلترا هي التي اثرت في نفسي أكثر من أي شيء آخر. مهلاً عليّ لحظة، وسأعطيك مثالاً».

«ذهبت منذ بضعة ليال لمشاهدة المهرجان الموسيقي العسكري في أولدر شورت، وكان هناك خمسون أو ربما مئة الف شخص ـ من كان بوسعه أن يعدهم؟ ـ وفجأة هبوا جميعاً واقفين، بمن فيهم النساء والأطفال، وبدأوا ينشدون (إبق معي). لم يقل لهم أحد أن يفعلوا ذلك، إنما جاء ذلك على نحو تلقائي تماماً. وكان من الواضح أن الأغنية تعبير طبيعي عن مشاعرهم. إن مثل هذا التصرف لا بد يؤثر في النفس.»

كان الأمير حسين متحمساً الى حد ما، وشعرت أنه سيكون من القسوة ان أخبره بأنه قد أصبح تقليداً أن يختتم الناس معظم المهرجانات العسكرية الموسيقية بإنشاد (ابق معي). ثم، ألم تكن ملاحظته صحيحة في أساسها؟ فليس هناك ما يجبر جمهور من البريطانيين أن يغني (ابق معي) إذا لم يشعروا هم أنفسهم بأنهم يريدون ذلك، ومن الواضح أن العاطفة التي تكمن وراء ذلك موجودة.

قلت له: «أفهم من ذلك أن سموكم تعتبرون الدين أساساً لا بديل له لكل أنواع الحكم؟»

أجاب دون تردد هذه المرة: «نعم». ثم أضاف بعد لحظة: «لا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك في بلادي، حيث ما يزال الدين جزءاً لا يتجزأ من الحياة. ولكنني أعتقد أن ما هو ضروري لنا ضروري أيضاً للدول الغربية: الأسس الدينية لحكم البلاد ومزيد من الدين في الحياة بوجه عام».

مرة اخرى كان الأمير يتكلم بحرارة وبلهجة التأكيد. ولم يحدث خلال محادثتنا أن خف إنطباعي الأول عما يعتمل في نفسه من نيران دينية متأججة. وقد بدا لي أنه أقرب الى الشيوخ المتفقهين الذي ينفقون ليالي بأكملها في المناقشات الدراسية منه الى أمير دنيوى، ربما يصبح يوماً ما حاكماً لبلاده، فدروب السياسة في الشرق كثيراً ما تكون دروباً ملتوية.(٢)

هوامش

(١) نقلها امين الريحاني في كتابه «ملوك العرب» ـ الطبعة الانكليزية ـ الناشر كونستابل، لندن، ١٩٣٠

(٢) لم يجب الأمير حسين مطلقاً على أسئلتي التي طلب مني أن أكتبها، والتي قدمتها له في اليوم التالي لمحادثتنا. وكانت هذه تجربة تعرضت لها أكثر من مرة ولم تعد تثير دهشتي. فكثيراً ما كان يطلب مني خلال محادثاتي في الشرق الأدنى أن اكتب أسئلتي حتى لا يتسرب إلى الاجابات أو معلومات غير دقيقة. ولم يحدث مطلقاً أن تلقيت إجابة على أسئلتي المكتوبة باستثناء حالة واحدة. وقد حاولت في بادىء الأمر أن أحث الناس على الاجابة بإرسال اسئلتي مرة أخرى أو حتى في خطابات مسجلة، وعلمت بمضي الوقت ان لا جدوى لجهودي.

وليس سوء النية هو الذي يجعل الحصول على اجابة مكتوبة من شخص عربي بهذه الصعوبة، وإنما يرجع الأمر أكثر الى الكسل الفطري، والانغماس في الأمور الذاتية، والافتقار الى الخبرة في مجال العمل الروتيني. وليس عندي أدنى شك في أن معظم الناس الذين وعدوا بارسال إجابات مكتوبة يرغبون رغبة صادقة في عمل ذلك، ولكنه عندما تاتي اللحظة كي يجلس المرء منهم ويجد ورقة وقلماً ومظروفاً، وينفق نصف ساعة في اداء الجهد المطلوب، فإنه يؤجل العمل. وفي النهاية لا يفعل شيئاً على الاطلاق.

وهناك بالاضافة الى ذلك، الخوف الشرقي التقليدي من الالتزام براي وتحمل مسؤوليته. ويمكن فقط من خلال عملية تعليم طويلة جدا، ومن خلال حياة اقل إنعزالاً وأكثر إرتباطاً بالمجتمع، تعليم العربي أن يتغلب على عدم رغبته في الزام نفسه وأن يبذل الجهد المطلوب. وربما جعلت هذه النقائص من الصعب على بعض دول الشرق الأدنى أن تفرض نفسها بين الدول العربية الأخرى بالأسلوب الذي يتفق مع قوتها وحجمها.

شخصيات عربية من التاريخ

يحاور هذا الكتاب شخصيات عربية من الماضي، تبدأ بالملك عبد العزيز آل سعود، وتمر بباقي الزعماء العرب من الملك عبدالله إلى الحاج أمين الحسيني إلى إميل اده إلى فارس الخوري إلى ناجي السويدي إلى طه حسين إلى لطفي السيد وغيرهم وغيرهم.

ويعتمد المؤلف في هذا المجال على كتاب أصدره الكاتب الانكليزي روم لانداو عام ١٩٣٦ إثر رحلة قام بها إلى العالم العربي وقابل فيها كل هؤلاء القادة.

ويدعو الكتاب إلى وقفة تأمل ومراجعة مع أنفسنا ومع التاريخ: التأمل في المواقف القومية والوحدوية التي كنا ندعو إليها، ومراجعة تاريخ عصر التشرذم الإقليمي والتمزق الطائفي الذي نعيشه اليوم.

ولعل أخطر ما في هذا الكتاب هو المقارنة التي يعرضها بين أحوال العالم العربي قبل خمسين سنة، وبين أحوال العالم العربي اليوم، فيدرك القارىء مدى التراجع الذي أصاب الفكر السياسي هذه الأيام، ومدى التخلف الذي لحق بالحريات السياسية قولاً وعملاً.

ISBN 1 - 869844 - 08 - 4

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS
السعر في العالم العربي
U.S. $ 4 دولار اميركي